# الفصل الثاني

## الشهادة والشهيد في شعر العصر الأموي

المبحث الأول : بواعث الشهادة

المبحث الثاني : صفات الشهيد

المبحث الثالث : المعاني المستخلصة من شعر الشهادة والشهيد

امتدت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين امتداداً محدوداً لم يصل بها إلى حدود ثابتة إذ ما تزال هناك منازعات واتصالات حربية على الحدود في مختلف الجبهات، وما تزال الأرض التي امتد لها الإسلام معرضة لحملات أعداء الإسلام من وراء الحدود فكان لابد من معارك أخرى يخوضها قادة الدولة الأموية في أكثر الميادين التي انتهى عندها الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين فتسللت هذه المعارك وسارت خطوة خطوة [1] ( فاندفعوا في أقطار الأرض فاتحين محررين ، لا حباً في الغزو ، ولا تهافتا على غنيمة ، وإنما جهاداً في سبيل الله وإعلاء لرسالته في الأرض ) [2] ، فواكبوا (تسجيل الملاحم وخاضوا غمار الإنتصارات ، وكتبوا لصمودهم القتالي أروع صفحات الإنتصار فكانوا رمزاً لكل بطولة ، وعنواناً لكل مجد ) [3]. فهذا العصر على اتساع مدة حكمه وكثرة حروبه التي خاضها ضد أعداء الإسلام لم يصل الينا منه فيما يخص شعر الشهادة والشهيد إلاّ القليل ، وليس سبب هذه القلة راجعاً إلى قلة أبطال هذا العصر الذين جادوا بأرواحهم في المعارك الحربية الكثيرة ولا عن خلو صفوف جيوش هذا العصر من الشخصيات القوية ، التي أدت خدمات جليلة في الحفاظ على دولة الإسلام من كيد الأعداء، وخلفت وراءها صفحات من الكفاح المخلص ، تسجل مآثرهم وبطولاتهم وتضحياتهم [4] وإنّما سبب هذه القلة يمكن أنْ نعزوه بعد الدراسة والبحث إلى الأسباب الآتية:

١. يرجع السبب الأول إلى أصحاب كتب التاريخ أنفسهم فمؤلفو هذه المصادر قد اقتصروا على القليل من الأبيات الشعرية ولا سيما مطالعها وذلك عندما يستشهدون بها على الحوادث التي تمر بهم فعلى سبيل التمثيل لا الحصر نجد صاحب الفتوح ابن أعثم الكوفي في أحد المواضع وهو يتحدث فيها عن إقدام الجراح بن عبد الله الحكمي[5] في إحدى المعارك التي خاضها ضد أعداء الإسلام ثم استشهاده ، فقال

---

(١) يُنظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ٢/١١١-١١٢ د . احمد شلبي .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي: ٢١٣ .

(٣) شعر الحرب حتى ق ١هـ /٢٤٣ .

(٤) يُنظر: اتجاهات الشعر في العصر الأموي: ١٥٦ د . صلاح الدين الهادي .

(٥) سيأتي خبره لاحقا . يُنظر: هذا البحث : ١٥٩.

صاحب الفتوح ( وبكى المسلمون في كل بلد حزنا منهم على الجراح وأصحابه فأنشأ بعض أهل الشام يقول في ذلك أبياتا مطلعها)[1]:

نَفْسي الفداء لِجَرَّاح وَقَدْ نَجَبَتْ  نَفْسُ الجَبَانِ وَضَاقَ الورد والصدرُ

فاكتفى بالمطلع وحرم الدارسين من بقية الأشعار ومن دون أنْ يعزو هذا الشعر إلى شاعر محدد .

٢. يعود السبب الثاني إلى استشهاد كثير من الشعراء الذين رافقوا هذه الفتوحات فضاع شعرهم الذي وثقوا به تفصيلات هذه الفتوحات وما كان فيها من تضحيات كثيرة [2] .

٣. أما السبب الثالث فيتعلق بالعصبية القبلية التي اتصف بها قسم من شعراء هذا العصر، فقسم من هؤلاء الشعراء الذين رافقوا هذه الفتوحات والذين لم يرافقوها قد اقتصروا في أشعارهم على توثيق تضحية واستشهاد فرسان قبيلته ، فإذا ما سقط منهم شهيد قاموا بتخليد تضحيته واستشهاده ، أمّا فرسان بقية القبائل الاخرى فلا علاقة لهم بهم[3].

٤. والسبب الأخير نعزوه إلى طبيعة هذا العصر ، فقد اتجه فيه الشعر اتجاهات متعددة بعضها ذهب إلى مناصرة الأحزاب وتخليد وقائعها ومآثرها [4] ، وقسم ذهب إلى الزهد [5] وقسم اخر اتجه إلى المناقضات والخصومات [6] ، خلافا لعصر صدر الإسلام الذي توجه فيه الشعر اتجاهاً واحداً وهو خدمة الدعوة الإسلامية ، وتخليد تضحيات واستشهاد ابطالها ، وهجاء أعدائها .

إنَّ الغاية من ذكر هذه الاسباب في مقدمة الفصل الخاص بهذا العصر هو جعل الباحث الكريم على علم باسباب قلة شعر الشهادة والشهيد الخاص بهذا العصر وحتى لا يفاجأ عندما يقرا الأشعار التي حصل عليها البحث وأحاطها بما يناسبها من تعليق ، فلو

---

(١) يُنظر: الفتوح: ٨/٤١ .

(٢) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٧٩ .

(٣) أُخِذَ هذا الرأي من محاضرة الأدب الإسلامي للدكتور سامي مكي العاني بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٥ .

(٤) يُنظر: اتجاهات الشعر في العصر الأموي إذ فصل صاحب الكتاب القول في ذلك

(٥) يُنظر: الإسلام والشعر : ٨٤-٩٦ ، د . سامي مكي العاني .

(٦) يُنظر: مقائض جرير والفرزدق.

كان البحث قد آخر ذكر هذه الاسباب وقرأ الباحث الكريم هذه الأشعار القليلة عندها سوف يلاحظ فرقاً بينها وبين مادة عصر صدر الإسلام ويسأل عن أسباب هذه القلة التي تسبب له الارباك ، لذلك أدرك البحث أنّه من الافضل ذكر هذه الاسباب في مقدمة هذا الفصل .

وما وجده البحث من أشعار تخص هذا العصر لا تختلف في أصلها عن أشعار صدر الإسلام بل كان الاختلاف في الكم أو العدد فبعض العنوانات وما اندرج تحتها من أشعار قد تشابه في الاصل والعدد والقسم الاخر كما قلنا قد تشابه في الاصل دون العدد .

# المبحث الأول
# بواعث الشهادة

لم يتغير موقف مجاهدي هذا العصر تجاه الشهادة والحرص عليها بل احبوها وحرصوا على طلبها والفوز ، فأصبحت الشهادة عندهم عقيدة راسخة في مكامن اعتقادهم بعد ان ( تأكد لهم ان الآخرة خير وابقى مادام الله تعالى قد اشترى منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ) [1] . أما البواعث التي حملت رجال هذا العصر على الاقدام في ركب الجهاد والفوز بالشهادة فهي تتشابه في اصلها وجذروها مع البواعث التي حملت مجاهدي صدر الإسلام وسوف يتضح ذلك اكثر عندما ندرس هذه البواعث واحداً بعد الآخر.

## ١. رسوخ العقيدة الإسلامية:

ان رسوخ العقيدة في مكامن اعتقاد المجاهدين قد حولهم إلى منفتحين على العالم بعد ان كانوا لابثين في الجزيرة أحقابا لا يخرجون الا طلباً للخصومة وللتناحر فيما بينهم فجعلت منهم هذه العقيدة اداة تحطيم للطواغيت التي تحول دون دخول الإسلام إلى شعوبها وتحرمهم منه [2] ( فاندفعوا في حماس بالغ ينتشرون بهذا الاعتقاد والشعور خارج حدود بلادهم إلى الشرق والغرب وإلى الشمال لا يأبهون بقوة في الأرض ، واثقين الثقة كلها بنصر الله ، أملين كل الأمل في ... الشهادة....) [3] فإذا ما حانت ساعة اللقاء تقدم المجاهد إلى عدوه وكله شوق إلى الشهادة وباعثه على هذا الاقدام ايمانه الصادق بعدالة القضية التي يحارب من اجلها [4] ( فلا شيء يشدّ من أزر الجندي كايمانه بوجهة نظره ، واطمئنانه على مصيره المحمود في حالتي النصر أو الغلبة ، فما بالك به إذا كان يعتقد

---

(١) شعر الفتوح الإسلامية: ٢٧٥ .

(٢) يُنظر: الجهاد في سبيل الله : ٥١ .

(٣) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ٣٠٠-٣٠١ .

(٤) يُنظر: الفن الحربي في صدر الإسلام: ٣٠٦ .

انه من حزب الله الذين ينزل عليهم نصره ويؤيدهم بروح من عنده ، ... فهذه العقيدة تخلق في صاحبها روح التضحية ، وتحمله على إيثار الموت على الحياة ) [1] ، فأصبحوا لا يهابون الموت ولا يخشونه لان صدق عقيدتهم قد جعلت الموت عندهم اشهى من العسل.

لقد برهن رجال هذا العصر على انهم ( اشد باساً ، وأقوى عزيمة واعظم ايماناً ، وأقدر على التضحية في سبيل العقيدة ، والاستشهاد من اجلها والسخاء بدمائهم من اجل صون كرامتهم وعزتهم والحفاظ على شرفهم ) [2] ، هذا ما اكده جروة بن يزيد[3] ، فقال[4]:

سَأغزُو التُّركَ في نَفَرٍ كِرامٍ ... سِراعٍ حِيْنَ نُدْعَى للضِّرابِ
يَرَوْنَ الموتَ أفْضَلَ من حياةٍ ... تُصَيِّرُها الدَّهورُ إلى تَبَابِ[5]

فما معه من جنود بواسل قد ترسخ الإيمان الصادق بالله تعالى في معتقدهم ومن شروط هذا الإيمان ان يسعى المؤمن به إلى مرضاة الرب تبارك وتعالى ومرضاته تكون

(١) الفن الحربي في صدر الإسلام : ٣٠٦-٣٠٧ .

(٢) الفروسية في أدب ق ١هـ /٨٤ .

(٣) هو: جروة بن يزيد الطائي استشهد مع سورة بن الحر الجعفي في سمرقند في معركة غير متكافئة إذ عطفت الترك والسغد نحو سورة وأصحابه فالتقى الجيشان وتقابلوا قتالاً شديداً لم يكن لسورة واصحابه به طاقة فاستشهدوا جميعاً . ينظر : المعمرون والوصايا : ٦٧ ، لأبي حاتم السجستاني ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وتاريخ الطبري: ٢٠٩/٨- ٢١١ ، والفتوح: ١٠٣/٨ .

(٤) المعمرون والوصايا : ٦٩ .

(٥) تباب: الهلاك والخسران . ينظر: اللسان: ٤١٥/١ ( تبب ) .

في قتال اعدائه والفوز بجناته ، فإن فعلوا فقد استحقوا ثناء الله تعالى فهذا جروة بن يزيد يثبت لنا ان جنوده قد تحلوا بهذا كله فقال [1]:

وَفِتْيَانٍ إِذَا نُدِبُوا لِحَرْبٍ ... تَمَشَّوا مِشْيَةَ الابلِ الهِيامِ
يَرَوْنَ عليهم لِلّهِ حَقّاً ... مُقَارَعَةَ الطَّمَاطِمَةِ الطِّغَامِ
يُرِيدُون المثُوبَةَ مِن الهِ ... بَصيرٍ تَحْتَ قَسْطَالِ القَتَامِ[2]
وَكُلُّهُم يُرادي التُّرك قِدماً ... وَيحوي مُنْفِساً في كُلِّ عامِ
وَيَرْجُو اللهَ لا يَرْجُو سِوَاهُ ... وَرَاجِي اللهِ يَرْجِعُ بِالسَّلامِ

ان في جهاد جروة وجهاد أصحابه يتضح أثر العقيدة الحاسم والإيمان بالشهادة في جهادهم [3].

إن ما تقدم ذكره من نماذج قليلة جسدت دور العقيدة باعثا قويا لاصحابها على الإقدام والاستشهاد كما ان هذه القلة من الأمثلة لا تعني ضعف العقيدة باعثاً على الشهادة بل ان السبب يعود كما تقدم ذكره إلى قلة أشعار الشهادة ولا ننسى ان نشير إلى ان هذا الباعث قد تماهى مع البواعث الأخرى على ما سيأتي .

(١) المعمرون والوصايا : ٦٩ .

(٢) قسطال: غبار . ينظر: اللسان: ٣٦٢٨/٥ ( قسطل ) .

(٣) يُنظر: شعراء إسلاميون : ٢٠-٢١ .

**٢. تحريض قادة جيوش المسلمين:**

ذكر البحث سابقا وتحديداً في ختام دور هذا الباعث الذي حمل رجال صدر الإسلام على الشهادة أَنَّ هذا الباعث سوف يبقى عاملاً حاسماً لصالح المسلمين في معارك ضد أعدائهم ما تمسك به من جاء بعدهم من قادة [١]. ومن خلال الدراسة وجد البحث إنَّ قادة هذا العصر قد تمسكوا بنهج سلفهم الصالح وأعطوا لهذا الباعث أهمية كبيرة في معاركهم ضد أعدائهم ، ففي سنة ثماني وسبعين من الهجرة توغل جيش المسلمين في بلاد رتبيل بسجستان حتى صار على مقربة من مدينته فحاصره العدو بعد أَنْ أُغلق عليه الطرق والشعاب فلم يكن ثمة منفذ أمام الجيش للانسحاب فخاف عبيد الله بن أبي بكرة [٢] هلاك الجند الذين معه مما دفعه الوضع إلى مصالحة صاحب رتبيل وإعطائه مَا لاً مقابل أَنْ يخلي بينه وبين الخروج لكن هذا الوضع لم يُرضِ قائداً أُحبَّ الشهادة ورأى في هذا الانسحاب ابتعاده عنها ، إنَّه شريح بن هاني [٣] الذي رفض هذا التنازل وأخذ يؤنب عُبيد الله ويستقبح فعلته وقال: ( والله بلغت سناً وقد هلكت لذَاتي ، ما تأتي عليَّ ساعة من ليلٍ أو نهار فأظنّها تمضي حتى أموت ، ولقد كنت أُطلب الشهادة منذ زمان ولئن فاتتني اليوم ما أُخالني مدركيا حتى أموت ، ... وقال يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإليَّ فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ ) [٤] ، فنحن نرى دور هذا القائد وهو يحثهم على التضحية والاستشهاد [٥]، فقاتل ومن معه من الجنود حتى

---

(١) ينظر: هذا البحث : ٤٥ .

(٢) هو عبيد الله بن آبي بكرة الثقفي كان اميراً جواداً ومات في سجستان . يُنظر: العبر في خبر من غبر: ٧٩/١ ، تاريخ الإسلام الحافظ الذهبي، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:٢٠٢/١ ، جمال الدين يوسف بن تغري بردى .

(٣) هو شريح بن هاني بن يزيد بن نُهيك أبو المقدام أدرك النبي ﷺ وقتل غازياً مع عبيد الله بن بكرةبسجستان سنة ثماني وسبعين إذا أخذ الكفار الدروب على المسلمين يومئذ فقتل عامة الجيش . يُنظر: العبر في خبر من غبر: ٦٦/١ ، والإصابة : ٢٢٣/٣ – ٢٢٤ .

(٤) تاريخ الطبري: ٢٨٢/٧ .

(٥) يُنظر: الأدب والالتزام: ١٦٨ .

أصيبوا فجعل شريح يرتجز يومئذ بأشعار جسد فيها حرصه على أن ينال الشهادة اليوم ، وهذه الأشعار باعثٌ قويٌ لمن معه من الجنود على الإقدام والاستشهاد فقال [1]:

أَصْبَحْتُ ذَا بثٍّ أقاسِي الكِبَرَا ... قَدْ عِشْتُ بَيْنَ المُشركِيْنَ أعْصُرَا

ثُمتَ أدركْتُ النبيَّ المُنْذِرَا ... وَبَعْدَه صدِّيقَهُ وَعُمَرَا

ويومَ مهرانَ ويومَ تُسْتَرَا ... وَالجَمْعَ في صِفِّيْنَهِم والنَّهَرَا

وياجُمَيْرَاتٍ مَعَ المُشَقَّرَا ... هَيْهَاتَ مَا أطْوَل هَذا عُمُرَا

فلم يزل يقاتل الأعداء ومن معه من الفرسان الذين ثبتوا على دينهم ولم يساوموا في الغاية والهدف الذي جاؤوا من أجله حتى نالوا الشهادة جميعا ، التي طالما تمناها وحرص عليها هذا القائد الشجاع [2] .

لقد كان هذا المصير المشرف دافعاً وحافزاً لجيوش التحرير في سيرها نحو تدمير قلاع الأعداء وحصونهم ، فواصلوا المهمة دون خوف من كثرة الأعداء أو قوة عدتهم لانهم جيش يمتلك أهم عاملين حاسمين في المعارك وهما الإيمان بالله تعالى والإخلاص له والاستشهاد من أجل الحق الذي خرجوا إلى تحقيقه . فهذان العاملان قوة مقتدرة في كثير من المعارك الحاسمة لذلك كان قادة المسلمين يؤكدون هذه الحقيقة عند بداية كل هجوم أو القيام بتقدم [3] ، ويتجلى لنا ذلك اكثر وضوحا في جيش مسلمة بن عبد الملك بن مروان الذي سيره الاخير بقياده ابنه إلى قتال الروم وقد التحق بهذا الجيش فتية مدنيون هداهم الله تعالى إلى الدين العظيم فاستشعروا لذة الإيمان ونشوة الاستشهاد فمضوا في ركب الجيش يقاتلون الأعداء فما زالوا هكذا حتى استشهد خمسة نفر منهم [4] ، عندها التفت بشر بن

---

(١) تاريخ الطبري: ٧/٢٨٢ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه : ٧/ ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٣) ينظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٥٧

(٤) التحق هذا الجيش الذي سيره عبد الملك بن مروان سنة تسعة وثمانين عشرة فتية وهم: سليمان بن عمرو القرشي ، وأخوه يحيى بن عمرو ، وهارون بن الحصين التميمي ، وأخوه احمد بن الحصين ومحمد بن ورعة العدني ، واحمد بن محمد البشكري ، وبشر بن مطر الازدي ، وسعيد بن إسماعيل الطائي الاسدي ، وعبد الله بن عمرو الطائي ، ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري ، وقد استشهد هؤلاء الفتية جميعا .

ينظر: الفتوح: ٧/١٧٠- ١٨٨ .

مطر الازدي إلى اخوته الذين بقوا معه وهم: يعقوب بن عبد الكريم الانصاري واحمد بن محمد اليشكري ومحمد بن زرعة العبدي فقال لهم: يا اخوتي إنَّه قد استشهد منا خمسة ومضوا لسبيلهم ونحن ههنا أربعة ونرجو أنْ نلحق بهم عن قريب إنْ شاء الله ، ولكن هل ترون ما أرى ؟ فقالوا: وما ترى يرحمك الله ؟ فقال: ويحكم إني رفعت رأسي إلى السماء انظر إلى هذه الغمامة التي قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجبا عجيبا وذلك أني رأيت رجالاً لم أرَ مثلهم ولا مثل صورتهم ساعة قط ، ومعهم خيام بيض لم أرَ على حسنها شيئا، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين استشهدوا فهذا ما رأيت . فعند ذلك اقشعرت جلود القوم ووقفت شعورهم واشتاقوا إلى ما شوقهم إليه صاحبهم بشر بن مطر الازدي ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على اخوانهم وجعل بعضهم يقول لبعض إنه يجب علينا أنْ لا نقصر في جهاد هؤلاء القوم الكفار فعسى الله أنْ يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته [1] . فنحن نرى هذا المشهد الإيماني الذي تحاض فيه هؤلاء الاخوة على نيل الشهادة واللحاق باخوانهم الذين سبقوهم ، وفي هذا الموقف ( تتساقط صور الحياة الفانية ، وتعلو صور الحياة الباقية ويتلاشى زهو الحياة الباهت ويبرز خلود الحياة الاصيل وهو يلوح لكل المؤمنين الذين كانت نظراتهم تخترق حجب الدنيا لتكتمل برؤية الحياة الخالدة ) [2] . فلما حان موعد اللقاء كان أول من تقدم منهم إلى الحرب قائدهم ومرغبهم في الشهادة بشر بن مطر الازدي فهو الذي رأى ما رأى لذلك ارتجز شعراً أكد فيه دون ريب رؤيته للحور العين التي دعته للشهادة كي يلحق برفاقه واخوته الخمسة ولم ينس رفاقه الذين معه إذ حثهم على الاقدام معه كي ينالوا الشهادة جميعاً ، فقال [3]:

مَنْ كَانَ فِي شَكٍّ وَفِي تَعَامِي ... فَقَدْ رَأيتُ الحُورَ فِي الغَمَامِ

صَبْراً لِهذَا يا بَني الكِرَامِ ... حَتَّى تَحُلُّوا سَاحَةَ السَّلامِ

(١) يُنظر: الفتوح : ٧ /١٨٠ – ١٨١ .

(٢) شعراء إسلاميون: ٢١ .

(٣) الفتوح: ١٨١/٧ .

بأمثال هؤلاء الرجال واصلت جيوش التحرير سيرها الجهادي نحو أعداء الإسلام، فهذا سعيد بن[1] عمرو الحرشي يقود جيش المسلمين الذي خرج لقتال أهل خراسان فلما وصل جيشه إلى الأعداء تردد قسم من جنده لما رأوا من عدة عدوهم وكثرة عدوهم ، فدب الاضطراب والقلق في صفوف هذا الجيش مما أدى إلى زعزعة روحه المعنوية لكن هذا القائد حسم هذا التردد ، إذ وقف فيهم خطيباً حاثاً على الجهاد والاستشهاد فقال : (إنكم لا تقاتلون عدو الإسلام بكثرة ولا بعدة ولكن بنصر الله وعز الإسلام فقولوا لا حول ولا قوة إلاّ بالله ) [2] ، إنّ هذا القائد يحسن التوكل على الله وإذا ما أحسن الجند التوكل على الله تعالى فإنّه يؤيدهم بنصره ، ويجعل من قلتهم كثرة ، ومن ضعفهم قوة [3]، ثم أنشد هذا القائد شعراً جهادياً باعثاً على الإقدام والتضحية والاستشهاد ، فقائدهم فارس شجاع قد خبر أساليب الحرب لذلك فهو لا يهاب الموت ولا يخشى مصاولة الأعداء ، فحبه للشهادة قد أنساه كل معنى للخوف أو التردد ، فقال [4]:

فَلَسْتُ لِعَامِرٍ إنْ لَمْ تَرَوني ... أمامَ الخَيْلِ أطْعَنُ بالعَوَالِي

فَاضْرِبُ هَامَةَ الجَبَّارِ مِنْهُم ... بِعَضَبِ الحَدِّ حُودِثَ بالصِّقَالِ

أبى لي وَالدِي مِن كُلِّ ذَمٍّ ... وخَالي في الحَوادِث خَير خَالِ

إذَا خَطرَتْ أمَامِي حيُّ كَعْبٍ ... وَزَافَتْ كالجبالِ بَنُو هِلالِ

هذا هو ( خلق الفرسان الذين يتسابقون إلى مصاولة أقرانهم ، ولا يرتضون بالذل والهوان وإعطاء الدنية في دينهم ) [5]، فيُقتلون كراما وهم يواجهون العدو خير لهم من أنْ يُقتلوا أذلاء بيد عدوهم ، لأنهم إنْ فعلوا الثانية فقد استحقوا الذل والهوان وهو ليس من

(١) هو سعيد بن عمرو الحرشي قائد من الولاة الشجعان وهو من أهل الشام ولاه ابن هبيرة خراسان سنة ١٠٣هـ ، كان تقيا بطلا إذ وصفه ابن هبيرة بفارس قيس . ينظر: تاريخ ابن عساكر: ٦/١٦٤ – ١٦٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ٨/١٦٩ .

(٣) ينظر: رياض العاشقين ومسار السالكين: ٢٨٣ .

(٤) تاريخ الطبري : ٨/١٦٩ .

(٥) العروسية في أدب ق١هـ: ١٦٢ .

خلق الفرسان الذين يستحبون الموت على الحياة [1]، فهذا عروة بن أدية يُجسد ذلك فيقول [2]:

لَعَمْرُكَ ما بالموتِ عارٌ على الفَتَى ... إِذَا ما الفَتَى لَاقَى الحِمامَ كَرِيمًا
وَلكِنَّمَا ضُرُّ الحيـــاةِ وعَارهَـا ... أَحَالَ عَلَيهِ أَنْ يَموتَ ذَمِيْمَـــا

بل كان أحدهم يتمنى أَنْ يقتل قعصاً برمح أو سيف ثم ترمى أعظمه في مهب الرياح العواصف ، هذا ما تمناه الطرماح بن حكيم فقال [3]:

فَأُقتل قَعْصًا ثم يُرْمَـــى بِـأَعْظُمِي ... كَضَغثِ الخَلا بين الرِّيَاحِ العَوَاصِـف
وَيُصْبِحَ لحمي بين طَـــيرٍ مقيلُـــهُ ... دُوين السَّماءِ في نســـورٍ عَوَائِـف

لقد حرص قادة جيوش المسلمين في هذا العصر كل الحرص على أَن يجعلوا الشهادة وثمرتها الجنة آخر شيء يسمعه المجاهدون من هذه الحياة الدنيا ، كي يكون ذلك باعثاً له على حياة جديدة عرضها السموات والأرض ، ويتجسد لنا هذا الأمر أكثر وضوحا في شخص القائد المجاهد الجراح بن عبد الله الحكمي[4] الذي قاد جيش المسلمين إلى قتال الخزر ، وقبل اللقاء بين الجيشين وفي اللحظات الحاسمة أمر هذا القائد أَنْ ينادي المنادي بالجند ( هلموا إلى الجنة لا إلى النار ! هلموا إلى الهدى لا إلى الحبار ! هلموا إلى الرحمن لا إلى الشيطان ! هلموا إلى الجنان لا إلى النيران ) [5]، فعندما يسمع المقاتل هذا الحرص وهذا التأكيد من قائده فانه يدرك أَنَّه سائر على الحق وأَنَّ الشهادة حق ،

---

(١) ينظر: البطل في شعر الحماسة: ٢٤٨ – ٢٤٩ ، ( بحث ) للدكتور جليل رشيد فالح ، مجلة آداب الرافدين – العدد الرابع عشر ، ( عدد خاص ) ١٤٠١ – ١٩٨١. ومثالية العرب الحربية وتقاليدها الإنسانية في التراث والأدب: ١٧٠ ، ( بحث ) للدكتور عادل جاسم البياتي – مجلة آفاق عربية – العدد الثامن ، ١٩٨٢ .

(٢) شعر الخوارج: ١٢ .

(٣) المصدر نفسه: ٩٩ .

(٤) هو الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان واحد الأشراف الشجعان ، ولي كثيرا من الولايات للحجاج وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، وفتح في آمرته لخراسان كثيرا من الفتوح واستشهد غازيا إذ قتله الخزر سنة ١١٢هـ . ينظر: الفتوح: ٤١/٨ ، والأعلام: ١٠٦/٢ .

(٥) الفتوح: ٤٠/٨ .

عندها سوف يسعى هذا المقاتل إلى طلب الشهادة بكل حرص وشوق إليها فإذا عارضه أحد من الأعداء في أخذها فانه سوف يمزقه وسيبقى هكذا حتى يأخذ ما يريد .

فأكد رجال هذا العصر ما أكده سلفهم الصالح عندما بينوا أهمية الدور القيادي الذي يقوم به قادة جيوش المسلمين عندما يحرضون جنودهم على الجهاد والاستشهاد .

**٣. الدعوة إلى الله تعالى:**

إنَّ هذا الدين الإسلامي العظيم الذي انتشر في الآفاق ووصل إلى كل الأسماع في كل زمان ومكان ، فازداد عدد المسلمين وأصبح لهم عالمهم الكبير قد بلغ من العمر (١٤٢٣ ) عاما .

فلو عدنا إلى الجذر الأساس لهذا الدين العظيم لوجدناه الدعوة الصادقة إلى الله تعالى يوم أن بدأ المصطفى ﷺ دعوته السرية إلى الناس لكي يخرجهم من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فما زال كذلك حتى استجاب إليه صفوة الخلق صحابته الكرام ، فآزروه ونصروه وغيروا مجرى التاريخ ووجه العالم يوم أنْ أعلنوا الدعوة العلنية إلى الله تعالى ، فاستجاب لهم من استجاب فأصبحت قلتهم كثرة وضعفهم قوة ولتفرقهم دولة عظمى وهذه الدولة أرسلت جيوشها إلى ملوك العالم أجمع فأزالوا عروشهم ونفوذهم وأدخلوا إلى بلادهم نور الإسلام .

يتضح مما تقدم أنَّ أساس هذا الدين هو الدعوة إلى الله فبها ينتشر وبها يعلو وبها يصل إلى القلب ويختصر المسافات والأزمان أو يلغيها كما إنَّ الدعوة هي واجب من واجبات المؤمن الذي أسلم ثم آمن بالعقيدة فعليه أنْ يهبها جهده ووقته [١] فبهذه الصفة صفة الدعوة مدح المولى ﷻ هذه الأمة فقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [٢] .

---

(١) ينظر: الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام ( دراسة فكرية فنية ) ٧٦ ، رسالة دكتوراه – كلية الآداب – الموصل – علي كمال الدين محمد ، ١٩٩٠ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ١١٠ .

وتتجسد هذه الدعوة أكثر وضوحاً في شخص الفتية المدنيين الذين سبق وأنْ أشار البحث إليهم . كان هؤلاء الفتية في كل نعمة سابغة لا يأتي يوم من الأيام إلاَّ وهم أشد سروراً وأطول حبوراً من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بان عبد الملك بن مروان قد وجه جيشا إلى بلاد الروم [1]، فأراد المولى ﷻ أنْ ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصي إلى نور الإسلام فهدى تعالى يحيى بن عمرو القرشي إلى هديه الكريم وأخوه عمرو ورفاقه لا يعلمون شيئا عن أمره فما زال كذلك يُجَالسهم وهو يتحين الفرص لهدايتهم إلى ما اهتدى إليه . وذات يوم اجتمعوا في مجلس لهم إذ اخذوا يتناشدون الأشعار فيما بينهم فاحب يحيى أنْ يسمعهم شيئاً مما قد عزم عليه من أمر التوبة والنزوع ما هو عليه ، فانشد قائلا [2]:

قالَتْ سَلَوْتَ فَقُلْتُ لَسْتُ بِجَاحِدٍ ... أنا والمُهَيْمِنِ ذِي الجَلالِ الواحِدِ

وَسَلَخْتَ وُدَّكَ من فُؤادي مِثلَ مَا ... سُلِخَ النَّهار من الظَّلامِ الرَّاكِدِ

قَالَتْ فَعُدْ فَالعَوْد عِنْدِي أَحْمد ... فأجَبْتُهَا هَيْهَاتَ لَسْتُ بِعَائِدِ

إنِّي أخافُ عَذابَ رب سَرمَد ... تَبْدُو فضَائِحُهُ وَلسْتُ بِبَائِدِ

فلما سمع رفاقه واخوته منه هذا الكلام أنكروا عليه وعذلوه لأنهم رأوا في صحوته وفي دعوته تفريق جمعهم وتشتت صحبتهم فأرادوا منه الرجوع عما هو عليه لكن صحوة الإيمان ونشوته تأبى الرجوع فحرك رأسه وأنشدهم مبتسما رداً إيمانياً بين فيه أنَّه قد ترك ما كان عليه خوفا من العذاب الأليم ، ومن نار الجحيم، فعليكم الاتعاظ بذلك وأنْ تُنيبوا إلى الله تعالى فقال [3]:

إنَّ في اللَّهو مَا عَلِمْتُ سُرُورَا ... لا يُرَى في حَوادِث الأَقْدَارِ

غَيْرَ إنِّي تَرَكْتُ ذَلك خَوْفاً ... وَحَذَاراً من شَرِّ عَارٍ وَنَارِ

فَأَنِيبُوا إلى الإلهِ وَتُوبُوا ... كَمْ إلى كَمْ نُقِيم في الإِصْرَارِ

---

(١) ينظر: الفتوح: ٧/١٧٢ .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه:٧/ ١٧٣ .

فكان لهذا الإيمان الصادق صداه وتأثيره في سمع أخيه سليمان بن عمرو إذ قال له: لقد أُخذ كلامك هذا بمجامع قلبي وعقلي حتى لقد غلب على سمعي وصدري وحال بين لذتي ، ولقد علمت أَنَّ الأمر كما ذكرت وأَنَّ الرغبة فيما رغبت ، عندها أنشده شعراً بين فيه توبته النصوح إلى الله تعالى كما أكد مصداقية دعوة أخيه يحيى فقال [1]:

يَا مَنْ يَلُومُ مُرَفِّقًا ... يَدْعُوا إلى إسعادِهِ
أَبْدَى النَّصِيحَةَ إذْ دَعَا ... لَمْ يَأْلُ فِي إِجْهَادِهِ
لَا تُنْكِرُوا مَا قَالَهُ ... مِنْ بَذْلِهِ لِرَشَادِهِ
فَلَقَدْ أَتَى بِنَصِيحَةٍ ... مَوْصُولَةٍ بِسَدَادِهِ

إِنَّ حرص يحيى على دعوته لاخوته ورفاقه إلى الطريق المستقيم يؤكد لنا صدق إيمانه الذي أكده وأخوه سليمان عندما استجاب لندائه ودعوته كما بين لنا يحيى في حرصه تأثره واستضاءته بقول المصطفى ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " [2] . ويحيى بن عمرو كما تبين ذكره هو أول من هداه تعالى إلى نور الإيمان فاستضاء عقله وقلبه به وتحديداً عندما سمع بمقدم جيش مسلمة بن عبد الملك إلى قتال الروم فأدرك يحيى أَنَّ هذا الجيش هو فرصته وطريقه إلى قتال أعداء الإسلام والاستشهاد في سبيل الله تعالى لكن حبه للشهادة لم ينسه حال اخوته ورفاقه الذين ضلوا عن سواء السبيل بل حرص كل الحرص على دعوتهم إلى الحق بإصرار حتى يكونوا من المهتدين ويكونوا صفاً واحداً في هذا الجيش ، كي يشاركوه القتال والاستشهاد فهو لم يحب الخير واليداية لنفسه فقط بل أَحبه وتمناه لغيره لان إيمانه الصادق يفرض عليه ذلك فاستجاب لدعوته أخوه سليمان الذي مضى مع أخيه يحيى في دعوة اخوتهما ورفاقهما إلى ما اهتدوا إليه ، ففي إحدى الليالي اجتمعوا جميعا فجلسوا عندها اقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال : يا أخوتي ويا أخلائي ومن تقر عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم ! إنه قد ينبغي للراقد أَنْ يستيقظ من رقدته ويستجلي عن غشوته ، فمهما شككتم في شيء فلا

(١) الفتوح: ١٧٣/٧ .

(٢) صحيح البخاري : ١٤/١ .

تشكوا في الموت وإنَّه نازل بي وبكم وأسال الله تعالى العصمة والتوفيق والتسديد لي ولكم والسلام ، فانشد قائلا [1]:

دَعَوتُكُم للرُّشْدِ والنُّصْحِ جُاهِدَاً ... وَمَا زِلْتُ للإخوانِ مُذ كُنْتُ نَاصِحَا

فَإِنْ تَقْبَلُوا نُصْحِي تَنَالُوا سَعَادةً ... وَتَأْتُوا طَرِيقَاً بَيْنَ القَصْدِ وَاضِحَا

وَمَن يَترك القَصد المُنير طُريقَه ... يُلاقِي غَدَاً نَاراً ويُخلد كَالِحَا

وهذا أخوه سليمان قد ( صاغ مثل الإسلام ، وكثيراً من مبادئه بأسلوب رفيع وتوجه بنصيحته ) [2] إلى اخوته ورفاقه فقال: يا اخوتي ومن قد عظمت حقوقهم علي وابيضت أيديهم عندي . إنكم قد علمتم ما افترقنا عليه في ليلتنا الماضية وما دعاكم إلى التوبة والنزوع عما انتم عليه فحظكم أصبتم والى الخير أجبتم وإنْ تقيموا على ما أرى من لغطكم واتباعكم أهواءكم فإني اسأل الله لكم التوفيق فقال [3]:

سَأَلتُ الهي أَنْ يؤَلِّفَ بَيْنَنَا ... عَلَىٰ الخَيرِ كَالتَأْلِيفِ فِي سَائِرِ الدَّهرِ

فَقَد عِشْتُم عُصراً أَو عَصْراً وإِنَّنَا ... لَفِي غَمْرَةٍ جَهْلاءَ فَوىٰ وَمَا نَدْرِي

نُلَجِّجُ فِي بَحْرٍ سُكَارَىٰ بِحَيرَةٍ ... فَحَتَّى مَتَى لَسْنَا نُفِيقُ من السُّكْرِي

وَتُوبُوا تَنَالُوا جَنَّةَ الخُلْدِ إِنَّمَا ... يَنَالُ جِنَانَ الخُلْدِ مَن كَانَ ذَا صَبْرِ

فهو يذكرهم وينبههم أنَّهم في ضلال مُبين إنْ هم أصروا على عملهم فعليهم التوبة النصوح إلى الله تعالى والصبر على طاعته كي يفوزوا بجنته ، فاعتمد سبيل الوعظ والإرشاد والنصيحة لتحقيق أغراضه[4] ، قال تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [5] فهو ( لا يريد من وراء ذلك زلفى أو جاهاً غير متملق أو متهيب لا يخاف في الحق لومة لائم هدفه هدف من قبله من

(١) الفتوح: ١٧٤/٧ .

(٢) الإسلام والشعر: ٨٤ ، د سامي مكي العاني .

(٣) الفتوح: ١٧٤/٧ – ١٧٥ .

(٤) دراسات في الأدب الإسلامي: ٢٠٩ .

(٥) سورة النحل: الآية ١٢٦

المصلحين والأنبياء عليهم السلام ) [1] ، قال تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [2] فلما سمع بشر بن مطر الازدي مقالة يحيى وسليمان بن عمرو استحكم قولهما في قلبه وأعجبه ذلك فقال: لقد عَلِمَ من أعين عقلا وأحضر هماً أين موضع الحق ، ثم أنشد شعراً أكد فيه صدق توبته إلى الله تعالى وإنَّه قد عزم على جهاد نفسه وعدم طاعتها ومخالفتها عما تهواه ، وإنَّه سوف ينتصر عليها بقوة صبره فقال [3]:

لَعَمْرِي لَئِن بِعْتُ الهِدايةَ بِالعَمَى ... وَآثرتُ غَيَّ الحقِّ إنِّي لَخَاسِرُ

أَأَترك حَظِّي بَعْدَ إذْ أنَا قَادِرٌ ... عَلَى أَخذِه والحقُّ فِيهِ بَصَائِرُ

سَأَجبرُ نَفْسِي عَن هَوَاهَا وَغَيِّهَا ... بِصَبرٍ قُوى الحَزْمِ والحُرُّ صَابِرُ

فأصبح بشر ثالثاً في ركب قافلة الإيمان التي تتهيأ للجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى فمضى بشر مع رفيقه يدعون من بقي منهم على الضلالة فما زالوا كذلك حتى هدى الله تعالى إلى دعوتها محمد بن زرعة العبدي ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري فهذان التائبان قد كانا في شك من أمر دعوة رفاقهم الدعاة الثلاثة لكن هذا الشك زال عندما سمع كل منهما في منامه هاتفا يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وان عليهم اللحاق برفاقهم الذين يدعونهم إلى التوبة [4] ، وفي نداء هذا الهاتف تتجلى دعوة الحق التي اهتدى إليها يحيى وسليمان بن عمرو وبشر بن مطر الازدي واستفاق على صوتها محمد بن زرعة العبدي ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري إنَّها دعوة ( تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلّا بحظ محدود ، حظاً يقيم أوده ويعده للكفاح في سبيل الله ) [5] ، فاصبح خمسة تائبين

---

(١) سيرة الدعاة إلى الله: ٤٣ ( مقالة ) للأستاذ ضياء الدوري . مجلة التربية الإسلامية – العدد الثاني عشر – السنة الرابعة والثلاثون ١٤٢١-٢٠٠٠ .

(٢) سورة هود: الآية ٨٨ .

(٣) الفتوح: ١٧٥/٧ .

(٤) المصدر نفسه: ١٧٥/٧-١٧٦ .

(٥) تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي: ٣٦٩ .

وخمسة حائرين عندما سمعوا هذا النداء ، فانصرف الخمسة الحائرون وهم يفكرون في حقيقة ما هم عليه أما الخمسة الذين قد تابوا فدعوا الله تعالى وتضرعوا إليه مخلصين أنْ يأخذ بقلوب إخوانهم إلى التوبة فما زالوا كذلك حتى استجاب الله تعالى لهم دعاءهم في إخوانهم واخذ بقلوبهم إلى طاعته ، فهذا هارون بن الحصين يكتب إلى يحيى بن عمرو القرشي معلنا له توبته وانضمامه إلى قافلة الجهاد والاستشهاد فقال : [1]

نَفْسِي الفِدَاءُ لِمَن جَلَّى الإلهُ بِهِ ... عَنَّا العَمَى وَوَقَاهُ مَوْرِدَ التَّلَفِ

قَدْ كَانَ مَا بَيْنَنَا فِي الدِّينِ مُخْتَلِفًا ... فَاليومَ نَحْنُ جَمِيعًا غَيرُ مُخْتَلِفِ

فأصبحا أخوين متحابين على أساس هدى الله تعالى وصراطه المستقيم [2] وينظم إلى قافلة الإيمان أيضا أخوه محمد بن الحصين الذي كتب إلى سليمان بن عمرو يخبره بصدق دعوته وانه قد آمن بها وتاب إلى الله تعالى صادقا لأنَّهُ يخاف من عذاب يوم الحساب فقال : [3]

أَتَتْنِي مِنْكَ مَوعِظَةٌ ... يُقَوِّمُ نُصْحُهَا أَوَدِي

فَجِئْتُكَ تَائِبًا فِي اليَو ... مِ خَوْفًا مِن عِقَابِ غَدِ

فلم يبقَ من الخمسة الحائرين إلاَّ ثلاثة فقط هم احمد بن محمد اليشكري وعبد الله ابن عمرو الطائي وسعيد بن إسماعيل الاسدي ، فإذا ما أراد هؤلاء الفتية التوبة وكانوا في شك من أمرهم فما عليهم إلاَّ أنْ يحتكموا إلى عقولهم بالحجة والدليل فإذا ( ما تدخل العقل بالحجة والدليل وبالمعقول فإنَّه سيغير كثيراً من الأفكار والقرارات وبالتالي سيكون الحكم)[4] حازماً وواضحاً لا شك فيه ، فهذا احمد بن محمد اليشكري يزن مصيره بميزان

---

(١) الفتوح: ١٧٨/٧ .

(٢) ينظر: ثلاث يجد صاحبا حلاوة الإيمان ٤٣-٤٤ (مقالة) للشيخ عبد الحميد سرحان . مجلة التربية الإسلامية – العدد الثالث – السنة الخامسة والثلاثون ١٤٢١-٢٠٠١ .

(٣) الفتوح: ١٧٨/٧ .

(٤) نقاء السريرة: ٥٤ (مقالة) للدكتورة ميثاق نعمة عبد . مجلة التربية الإسلامية – العدد الحادي عشر – السنة الرابعة والثلاثون ١٤٢٠-٢٠٠٠ .

العقل عندها أدرك انه في ضلال مبين ، لذلك قرر قبول النصيحة نصيحة محمد بن زرعة العبدي فأعلن توبته إلى الله تعالى وكتب إلى محمد يبلغه ذلك فقال : [1]

نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِن فَتَى ... مَنَحَ النَّصِيحَةَ جَاهِدَا
فَأُطِيعَ رَأيَكَ لا أَرَىٰ ... لِلنَّاصِحِينَ مُعَانِدَا

ولم يتأخر عبد الله بن عمرو الطائي هو الأخر في إعلان توبته فكتب إلى بشر بن مطر الازدي يخبره قبوله دعوته وإعلانه توبته فقال : [2]

لَقَدقَرأت كِتَاباً مِنْكَ هَيَّجَنِي ... يَدْعُوا إلى الله إِسْرَارَاً وإعلانَا
أجبتُهُ ودعوتُ الله مُجْتَهِدَاً ... كَمَا نَكونُ عَلَىٰ الخَيْرَاتِ أَعْوَانَا

أما سعيد بن إسماعيل الاسدي فقد كان ختامه ختام المسك إذ ختم تردده بتوبة نصوح عندما قرأ كتاب يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري إذ رأى ما فيه من الحق والهدى، فاهتدى إليه وكتب إلى يعقوب يبلغه ذلك فقال :[3]

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ فِيهِ مَوَاعِظٌ ... تَحُظُّ عَلَى خَيرٍ وَتَدْعُوا إلى رُشْدِ
فَأَبصرتُ مَا فِيهِ من الحَقِّ والهُدَى ... وَفَارَقْتُ مَن أَهوَىٰ عَلَى أَجْهدِ الجَهْدِ

فلما اكتمل عندهم والتم شملهم ثانية على طاعة الله تعالى فرحوا لذلك واستبشروا بهذه النعمة العظيمة وابتهلوا إلى الله ﷻ أنْ يقوي عزميم على ما عزموا عليه من التوبة والانضمام إلى جيش مسلمة بن عبد الملك بن مروان لكي يشاركوا في قتال الأعداء ويفوزوا بشرف الشهادة ، ( فالتضحية وحب الشهادة من القيم العظيمة التي غرسها الإسلام ، والتي كان لها دورها المؤثر في إغناء روحية المجاهدين ، وفي خلق حالة الاستعداد والثبات الدائم في نفوسهم ) [1] ، فمضوا في صفوف هذا الجيش الإسلامي وكلهم شوق إلى منازلة الأعداء والتضحية بنفوس عزيزة عليهم رخيصة في سبيل الله ،

---

(١) الفتوح: ١٧٨/٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

فكان لهم ذلك عندما استشهدوا جميعا[٢] .إنّما قام به يحيى بن عمرو القرشي من اثر مهم جدا وذلك عندما جند نفسه داعية من دعاة الإسلام فاستطاع بفضل الله تعالى هداية اخوته ورفاقه إلى طريق الحق والنور المبين عندما أعلنوا توبتهم واحد تلو الآخر ، فانضموا جميعا إلى هذا الجيش الذي نالوا فيه الشهادة فكانت دعوته باعثاً مهماً لهم على توبتهم وإقدامهم نحو الشهادة .

**٤. الجهاد في سبيل الله :**

أكمل مجاهدو هذا العصر مسيرة سلفهم الصالح في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى ينشرون رسالة الإسلام ، ويعلنون كلمته العليا ويبثون دعوته في سائر الأمم والشعوب البعيدة والغريبة [٣] .

فالحرب في هذا العصر قد اتخذت شكلا متميزاً وحالة لها مقوماتها الجديدة وحالتها التي أوجدتها طبيعة المرحلة بعد أنْ توسعت رقعة الدولة وتحركت قوافل جيش التحرير فوق أرض امتدت مساحتها واختلفت شعوبها وتعددت طبائعها وأخرجتها ، وتمايزت طبيعة أرضها [٤] ، وعليه فإن التضحية والاستشهاد في هذا العصر أصبح مجالهما أوسع مما كانا عليه في صدر الإسلام [٥].

---

(١) شعر العقيدة: ١٦٦ .

(٢) ينظر: الفتوح: ٧/١٨٠ – ١٨٣ .

(٣) يُنظر: من أدب الدعوة الإسلامية: ٨١ .

(٤) شعر الحرب حتى ق١هـ/٢٤٢ .

(٥) يُنظر: المصدر نفسه: ٢٧١ .

ففي السنة التاسعة والأربعين وقيل سنة خمسين سير معاوية بن أبي سفيان جيشاً كثيفا إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف [1] وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم، وكان في الجيش أيضا ابن عباس وابن عمرو وابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصاري [2] وعبد العزيز بن زرارة الكلابي [3] وغيرهم فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية . عندها اقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة ، لكنه لم يقتل فمضى يواصل جهاده لأعداء الإسلام عسى أنْ يرزق الشهادة ، التي من أجلها عشق الجهاد لأنه طريقه إليها عندها أخذ ينشد شعراً بين فيه سأمه وملله من طول هذه الحياة الدنيا التي قد عاش فيها وأدرك خيرها وشرها ، ولينها وقسوتها ، فهذه التقلبات التي شهدها لم تضعف من عزيمته شيئا بقدر ما زادت من رغبته وحبه للشهادة التي مضى مجاهداً يبحث عنها في صفوف المقاتلين ، فقال [4] :

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهرِ أَطْوَاراً عَلَى طُرقٍ ... شَتَّى فَصَادَفْتُ مِنْهَا اللينَ والبشَعَا

كَلَّا بلوتُ فَلا النُّعْمَاءُ تبطرني ... وَلا تَخَشَّعْتُ مِن لأوائِهَا جَزَعَا

لا يَملأ الأمرُ صَدْرِي قَبْلَ مَوقعه ... وَلا أَضيقُ بِهِ ذَرْعَاً إِذَا وَقَعَا

---

(١) هو سفيان بن عوف الازدي الغامدي قائد صحابي شجاع كان مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام حين افتتحت ولاية معاوية بن أبي سفيان الصائفتين ، فظفر واشتهر ثم سيره بجيش إلى بلاد الروم فأوغل فيها إلى ان بلغ أبواب القسطنطينية ، وتوفي في مكان تسمى الرمداق . يُنظر: تاريخ ابن عساكر: ٦/١٨٣ – ١٨٥ ، والإصابة: ٣/١٠٦ – ١٠٧ .

(٢) هو خالد بن يزيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف بن غنم بن مالك بن النجار شهد العقبة وبدرا واحدا واحدق وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ توفي بالقسطنطينية من أرض الروم سنة خمسين في خلافة معاوية تحت راية يزيد . فهو إن شاء الله شهيد في سبيل الله لانه مات مجاهدا في سبيله وقد تقدم ذكر الدليل الذي يبين ذلك . يُنظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٣/٣٣ ، علي بن الحسن المسعودي ، والإستيعاب: ٤/١٦٠٧ ، والإصابة: ٢/٨٩ – ٩٠ .

(٣) هو عبد العزيز بن زرارة بن حرب بن عمرو الكلابي قائد من الشجعان المقدمين في رمال معاوية كان في مسير القسطنطينية وأبلى في قتال الروم بلاءً حسناً وما زال كذلك حتى استشهد . يُنظر: شرح ديوان الحماسة: ٤/٢٢١ . للخطيب التبريزي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، وتاريخ ابن عساكر : ٥/٣٧٣ ، والكامل في التاريخ ٣/٤٥٩.

(٤) الكامل في التاريخ: ٣/٤٥٩ ، ويُنظر: العبر في خبر من غبر: ١/١٣٤ – ١٣٥ .

ثم حمل على من يليه فقتل منهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه شهيداً فبلغ استشهاده معاوية فقال لأبيه: والله هلك فتى العرب ، فقال: ابني أو ابنك ، قال: ابنك فآجرك الله [1].

فكانت شجاعة عبد العزيز وتضحيته في سبيل الله تعالى دافعاً لكي يواصل الجيش جهاده لأعداء الإسلام ، فمضى هذا الجيش لغايته حتى وصل إلى الخليج وهو بحر دون القسطنطينية عندها ثقل أبو أيوب وتفاقم عليه المرض واشتدت عليه وطأة الأيام حتى أتاه القائد عائداً فقال له: ما حاجتك أبا أيوب ؟ فقال: أما دنياك فلا حاجة لي فيها ولكن قدمني ما استطعت في بلاد العدو ، فلما مات وهو على مقربة من السور أمر القائد بتكفينه وحُمِلَ على سريره ثم أخرج القائد الكتائب فجعل قيصر يرى سريراً يُحْمَلُ والناس يقتتلون . فأرسل إلى القائد ما هذا الذي أرى ؟ قال: صاحب نبينا وقد سألنا أنْ نقدّمه في بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله تعالى [2] .

لقد كانت عزيمة هذا الصحابي الجليل ( رمزاً للبطولة النادرة ، وهو يتخطى عتبات العمر المديد ، ... وقد ألى على نفسه عهداً ، وأخذ عليها وعداً بأنْ يحقق أمنيته.... التي اقترنت بروح الجهاد ، والمقاومة واندفعت بإيمان العقيدة ، فكانت ألواناً زاهية في عالم الحرب وقدرات ماثلة لكل المقاتلين الذين تحركت في قلوبهم نوازع الاستشهاد وهم يقرءون في وجه المجاهد الكبير علامة الرضا ويحققون في صلابته صدق العقيدة ، .... ، وتظل نظراته التي تعلقت بأسوار المدينة العظيمة تخترق كل المسافات والمتاهات لتستقر على جانب من جوانبها الذي لمع في ذهنه حفرة طاهرة تحف بها ملائكة الرحمن وتنزل عليه فيها شآبيب الرحمة ) [3] .

وشعراء هذا العصر هم أيضاً أحبوا الشهادة فهم كأسلافهم شعراء صدر الإسلام الذين رأيناهم يشاركون إخوانهم الجهاد حباً في الشهادة ، فاقتدوا بهدي سلفهم الصالح وساروا على نهجهم فواكبوا ( حملة التحرير يحملون أرواحهم مع المجاهدين ويعيشون المعارك ، ... ، ولم تكن سيوفهم بعيدة عن المعركة ولا خيولهم غريبة عنها فهم أبناء

---

(١) يُنظر: الكامل في التاريخ: ٤٥٩/٣ ، وينظر: العبر في خبر من غبر: ١ /١٣٤ – ١٣٥ .

(٢) يُنظر: الإستيعاب: ١٦٠٦/٤ – ١٦٠٧ ، وشعر الحرب حتى ق١هـ/٢٤٨ .

(٣) شعر الحرب حتى ق١هـ / ٢٤٨ – ٢٤٩ .

ورجالها ، وهم وحدة صادقة لا تتجزأ عن وحدة المجاهدين [1] ، وذلك (بعد ان نذروا أنفسهم جنودا في مواكب الإسلام ) [2] فاستطابوا الحياة في ظل السيوف المسلولة ، واستطعموا الراحة في رقعة المجاهدين الذين يكتبون التاريخ بدمائهم الطاهرة .

لقد ( كانت الشهادة أمل كل مقاتل ) [3] يخرج ملبيا نداء الجهاد ففي سنة ٦١هـ أغار سلم بن زياد [4] على سمرقند وانفذ فرقة إلى خجندة [5] ، فانهزمت هذه الفرقة وكان أعشى همدان أحد الجنود الغازين المغلوبين فانشد شعرا بين فيه اسفه لانكساره مع غيره من الجنود وتمنى ان يكون شهيدا وقد تخضب بدمائه التي سالت في سبيله تعالى حتى يلقى الله وهو راض عنه فقال [6] :

لَيْتَ خَيْلِي يَوْمَ الخجندَةَ لم تُهْزَم ... وغُودرتُ في المكرِّ سَلِيبَا

تَحْضُرُ الطَّيرُ مَصْرَعِي وَتَرُوحُ ... إلى الله بالدِّمَاءِ خَضِيبَا

---

(١) يُنظر: شعر الحرب حتى ق١هـ/٢٦٣ .

(٢) شعر العقيدة: ١٥٥ .

(٣) نظرات في شعر صدر الإسلام: ٤٩ .

(٤) هو سلم بن زياد بن أبية أمير من آل زياد ، ولاه يزيد بن معاوية خراسان فذهب إليها وغزا سمرقند كما كان جواداً وأحبه الناس ومدحه الشعراء ، تولى بالبصرة. يُنظر:النجوم الزاهرة:١/١٩٠، ويُنظر: تاريخ ابن عساكر:٦/٢٣٧ – ٢٣٩ .

(٥) خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر . يُنظر: معجم البلدان: ٣/٢١٦ .

(٦) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي : ٥٨١ ، جمعه وحققه عبد العزيز محمد الزير ، الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي: ١٥٦. د . حسين عطوان .

بهذه النفوس ( المتوثبة للشهادة اندفع المقاتلون إلى سوح الجهاد فخاضوا معارك ضارية وواجهوا جيوشا تفوقهم عددا وعدة ، وفي أرض يجهلون معالمها وعوارض طبيعية لم يتعودوها في أيامهم قبل الإسلام ، وحصون وقلاع منيعة يصعب اقتحامها ) [1] لكن ذلك لم يثن من عزيمة ( المجاهدين الذين استرخصوا الدماء دفاعا عن الأرض وإيمانا بالعقيدة وحماية لكل ما يدافع عنه الإنسان ) [2] كما إن ( الحرب وروح الجهاد افضل للعربي المسلم من أي مخلوقٍ سواه ) [3] لأنه عن طريقهما ينال الشهادة لذلك واصلت قوافل التحرير مسيرتها الجهادية وتدفقت معها موجات المجاهدين الذين وجدوا في الجهاد حقا مشروعا وتضحية مقبولة وطريقا لتأكيد الإيمان الصادق [4] ، فهذا خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان ينادي بالناس وجمعهم في المسجد الأعظم ثم صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وقال : أيُها الناس ان العدوّ قد تكالب عليكم ، وطمع فيكم فماذا عندكم من الرأي ؟ فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك ، ثم اجتمع الناس من الأمصار بعد ان توجه إليه فرسان الحجاز ورجال اليمن وفرسانها وأجناد مصر والعراق ، وقبل ان تتحرك قوافلهم اجتمع فيهم فقال: أيُها الناس إنّكم قد علمتم ما ذكر الله ﷻ في كتابه من فضل الجهاد ، وما وعد الله عليه من الثواب ألا وإني قد عزمت ان أغزو بكم غزوة شريفة ، بعد ان طغى صاحب الروم وبغى ، وقد بلغني انه قد جمع للمسلمين جموعا كثيرة وعزم على غزوكم

---

(١) الفروسية في أدب ق١هـ: ١٦١ .

(٢) شعر الحرب حتى ق١هـ/٢٦٢ .

(٣) مثالية العرب الحربية وتقاليدها الإنسانية في التراث والأدب: ١٧٠ .

(٤) يُنظر: شعر الحرب حتى ق١هـ /٢٧٣ .

ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت ان الله مهلكه ومبدد شمله وجاعل دائـرة السـوء عليـه وعلى أصحابه وانتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته ، هذا ابني مسلمة قد أمرتـه عليكـم فاستمعوا إليه وأطيعوه يوفقكم الله ، انتم إخواني وأعواني وهو سيفي ورمحي ورجـوت أن يقضي الله به على جيش الروم ، فسار الجيش بقيادة مسلمة حتى نزل بمرج دابق [1].

عندها خرج إليه الناس من كل مكان يلتحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد لانه طريقهم إلى الشهادة فمازالوا كذلك حتى صار مسلمة في عسكر عظيم مـهيأ لقتـال الروم[2].

إن جيوش هذا العصر لا تختلف عن سابقتها جيوش صدر الإسلام التي قـدم لنـا مجاهدوها أروع صور الفداء والتضحية ، فجيوش هذا العصر أدركـت أهميـة الجـهاد وآمنت بحقيقة الرسالة التي أذن الله بها لهذه الأمة ان تعد نفسها لحملها ، فقدم لنا مجاهدوا هذا العصر أروع صور الفداء والاستشهاد وهم يقـاتلون الأعـداء علـى أرض امتـدت مساحتها ، واختلفت شعوبها [3] ، فلما التقى الجيشان وتنازل الفرسان تقدم هـارون بـن الحصين إلى قتال الأعداء فتنازل مع علج من الأعداء إذ تمكن الأخير من طعنه ليسـقط هارون شهيدا رحمه الله تعالى ، فتقدم بعده أخوه احمد بن الحصين نحـو هـذا العلـج فضربه ضربة على فخذه فقطعها وسقط منها قتيلاً .

(١) دابق: قرية قرب حلب . يُنظر : معجم البلدان: ٤/٢٧١.

(٢) يُنظر : الفتوح: ٧ /١٦٧ – ١٧٠ .

(٣) يُنظر : شعر الحرب حتى ق١هـ/٢٤٣ .

وما أن قتله احمد بن الحصين حتى خرج إليه علج آخر يقال له بولص [1] ، فنظر إليه احمد وقصد نحوه دون ان يجزع من الموت بل هو حريص على الشهادة كما يحرص أعداء الإسلام على الحياة [2] فانشد[3]:

دُونَكَ حَرْبَاً لا تَقِيهِ تِرْسِي صَبْراً عَلَىٰ المَكْرُوه مِنِّي نَفْسِي
كَيْمَا أَنَالَ مَنْزِلاً في القُدْسِ فَإِنَّمَا الدُّنيَا كَيومِ أَمْسِ

فاختلفا ضربتين إذ طعنه العلج في خاصرته جعله قتيلا شهيدا "رحمه الله تعالى" [4] .

بأمثال هؤلاء المجاهدين الذين حرصوا على الشهادة كان النصر حليف المسلمين [5] ، وبعد كل نصر لهذا الجيش يواصل مسلمة بن عبد الملك بن مروان ( الدور القيادي له في نقل التشريع الإلهي الذي أودعه الله أمانة في أعناقهم وبلغه إلى الرسول صلوات الله عليه ، وقد تحولوا إلى دعاة وهداة ، ينشرون باسم الله رسالتهم ويضعون أمام الناس حقائق التنزيل المرسل تملؤهم نفحة الإيمان الخالد ، وتشدهم صلابة العقيدة الراسخة ، وتدفعهم قدرة التضحية والجهاد ، وانساحوا جيوشا متراصة ) [6] لفتح البلاد الباغية ومنها بلاد عمُّورية [7] ، التي تحصنت بكثرة رجالها وقوة عتادها ضد جيش مَسلَمة ، لكنها ما

(١) يُنظر: الفتوح : ١٨٠/٧ .

(٢) يُنظر: شعر الفتوح الإسلامية: ٢٧٥ .

(٣) الفتوح : ١٨٠/٧

(٤) يُنظر: المصدر نفسه .

(٥) يُنظر : المصدر نفسه : ١٨٠/٧-١٨٣ .

(٦) شعر الحرب حتى ق١هـ : ٢١٦ .

(٧) عمُّورية : بلد في بلاد الروم . ينظر: معجم البلدان: ٣٥٥/٦ .

تعلم ان جيش المسلمين لا يقيس النصر بمقياس مادي كما هم يفعلون بل يكـــون الإيمـــان الصادق والحرص على الجهاد في سبيل نشر راية الإسلام هو مقياس المسلمين ، فـــالتقى الجيشان وتقاتل الفرسان قتالا شديدا . ولم يكن الشعر بعيدا عن جو هذه المعركة بل كـــان متواجدا في كل جوانبها إذ أسهم في ( تحريض المؤمنين على الجهاد ومواصلة الكفـــاح ، وكان من ابلغ الوسائل في استنهاض الهمم ، ... ، فانشده الجنود يستحثون به رفاقهم فـــي السلاح والعقيدة على مواصلة الجهاد والنضال) [1] . فهذا عبد الرحمن بن صعصعة بـــن صوحان العبدي يتقدم الصفوف أمام المسلمين وأخذ يرتجز شعرا أكد فيه شجاعته وقدرتـه على قتال الأعداء فهو يريد الشهادة من جهاده هذا ولا شيء غيره ، كما حـــث أصحابـــه على مواصلة الجهاد وعدم الخوف من كثرة الأعداء ، فإنها لا شيء أمام الله تعـــالى بـــل الذي يجب على المجاهد ان يخاف منه هو الله تعالى فقال [2] :

أَنَا ابنُ عَبد القَيس جَدِّي صَعْصَعَـهْ ذو البَاس والإقْدَام عِنْدَ المَعْمَعَـــهْ

إِذَا التقى الأَبْطَالُ وَسْطَ المَعْمَعَـــهْ والرومُ قَدْ سَارَتْ إِلينَـــا مُجمِعَـــهْ

وَمَنْ يَخَافُ اللهَ فاللهُ مَعَهْ

فحمل عبد الرحمن على الأعداء يقاتلهم حتى رجع مجروحا ، ثم تقدم محمـــد ابـــن مروان أخو عبد الملك بن مروان فأخذ يرتجز شعرا بين فيه عزمه على قتـــال الأعـــداء بسيفه الصارم الحسام فهو أدرك السعادة التي يحصل عليها الإنسان في الآخرة عندما يقتل

(١) الإسلام والشعر: ١٠٣-١٠٤ د. سامي مكي العاني .

(٢) الفتوح: ١٨٥/٧ .

في سبيل العقيدة [1] ، فقال [2] :

أَنَا ابنُ مَرْوَانَ إِذَا الهَيجِ اضْطَرَم ... أَكر في الحَرْبِ كَلَيثٍ مُقْتَحِمْ

بِصَارِمٍ عَضَبٍ حسام ذِي صَرم ... كَذَاكَ شَيْخِي كَانَ قدماً وَالحكمْ

فقاتل الأعداء وحمل عليه شمعون بنفسه فطعنه طعنة منكرة رجع على أثرها محمد إلى صفه فما زالت رحى المعركة دائرة بين الجيشين فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كان للمسلمين نهايتها [3] .

وكعادته مسلمة فقد واصل السير الجهادي نحو أعداء الإسلام فلما اقترب من المسيحية خرج إليه الروم في سبعين ألفاً فدنا القوم بعضهم من بعض واقتتلوا قتالا شديداً إذ حملت الروم على عسكر المسلمين وجعل افريطون وشماس البطريق يحملون على المسلمين ويقتلون منهم [4] ، لكن ( المؤمن الذي يقاتل الكافرين ، ويعرض نفسه للموت نصرة للمبادئ الفاضلة التي أمر الله بتعزيزها ونضالاً عن العقيدة التي هي جماع الخير وعمود البر ) [5] ، لم يتراجع أو يتردد عن مواجهة عدو الله الكافر فهذا البطال بن عمرو أحد شجعان المسلمين الذين خرجوا يجودون بأنفسهم في سبيل الله تعالى يتقدم نحو عدو الإسلام قائد الروم [6]، وقد عزم على قتاله وقتله فأمر نفسه أن تجود بالجهاد في قتال هذا العدو علّها تفوز بالشهادة ، فقال [7] :

لَا بُدَّ مِن عَرْضٍ وَمِن مَقَامِ ... عَلَى مَلِيكٍ صَمَدٍ منعامِ

فَجَاهِدِي يَا نَفْسُ لَا تُلامِي ... بِكُلِّ عَضَبٍ ذكر حسامِ

---

(١) يُنظر: الأديب والالتزام: ٦١.

(٢) الفتوح: ٧/١٨٥ .

(٣) يُنظر : المصدر نفسه: ٧/ ١٨٥-١٨٨ .

(٤) يُنظر: المصدر نفسه: ٧/١٩٠-١٩١ .

(٥) كيف السبيل إلى الله . الجهاد والاستشهاد في الإسلام : ١٦/٦٠-٦١ .

(٦) يُنظر: الفتوح : ٧/١٩١ .

(٧) المصدر نفسه .

فحمل للبطّال على افريطون والتقيا بطعنتين طعنه البطال طعنةً جعله قتيلا ، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على راس رمحه ثم كبّر ، وكبّر المسلمون معه فلما نظرت الروم إلى راس قائدها انكسرت وانتصر المسلمون [١] .

وأمثال البطال كثير من المجاهدين الذين إذا ما دعت الدواعي وجدتهم في المقدمة من الصفوف يواجهون العدو بوجوه غير متخاذلة ولا هيابة [٢] . فواصل جيش المسلمين وهو يمتلك هؤلاء الأبطال انتصاراته وهو يدك الحصون [٣] ، ففي إحدى هذه المعارك التي خاضها المسلمون جعل أحد بطارقة الروم يحمل على المسلمين فلا يلحق أحدا إلاّ قتله [٤] ، فتحاماه الناس لكن البطال بن عمرو لم يكن بعيدا عن هذا البطريق ولم يتردد لحظة في مواجهته وقتاله فهو مجاهد مؤمن بالله تعالى يواجه المواقف الحاسمة بقلب يعشق التضحية إلى درجة الاستشهاد [٥] ، لذلك أدرك هذا القائد فضل الجهاد فهو طريق الشهادة ، فانشد وقد عزم على قتل هذا الكافر [٦] :

هَـذَا لأَنِّي قَـدْ أَرَدْتُ قَتْلَـهُ  إِنَّ الجِهَادَ قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ

(١) يُنظر: الفتوح ـ ٧/١٩١-١٩٢ .

(٢) يُنظر: البطل في شعر الحماسة : ٢٥٧ .

(٣) يُنظر : الفتوح : ٧/١٩٢-١٩٦ .

(٤) يُنظر: المصدر نفسه: ٧/ ١٩٦ .

(٥) يُنظر: شعر العتيدة : ١٧٤ .

(٦) الفتوح: ٧/١٩٦ .

إنَّ حرصهم على الموت اكثر من حرصهم على الحيـــاة واندفاعــهم مــن اجــل الاستشهاد اكثر من تراجعهم حباً في الدنيا [1] .

إنَّ أعمال مجاهدي هذا العصر وما أبدوه من تضحيات رائعة كان لوحـــة أخــرى رائعة جسدت وبشكل جلي حب رجال هذا العصر لطريق الجهاد في ســبيل الله تعــالى ، لأنه طريق المجاهدين إلى الشهادة .

### ٥. الفوز بالجنة

لقد أحالت الآيات الكريمات التي وصف بها المولى تبارك وتعالى جنان الخلد ومــا فيها من نعيم دائم ، كذلك أحاديث المصطفى البشير محمد ﷺ التي بين فيها هذه المنزلـــة العظيمة والدرجة الرفيعة التي أعدها تبارك وتعالى لمن يقتل أو يموت شهيدا فــي ســبيله تعالى رجال صدر الإسلام إلى مشاريع استشهاد دائمة ومتواصلة إلى الجنة فمـــا زالــوا كذلك حتى رزق الله تعالى من شاء منهم الشهادة وثمرتها الجنة ، وأبقى تعالى مــن شــاء منهم إلى اجل مسمى .

ولم تضعف هذه الرغبة وهذا الحنين عند مجاهدي هذا العصر تجاه الشـــهادة بــل مضوا يطلبون الاستشهاد حتى يدخلوا الجنة من أوسع أبوابها ، وكانوا كلما فتحـــوا بلــداً وانتصروا في معركة ضد أعداء الإسلام اشتدت بهم حماستهم إلى الشهادة فيطلبون معركة جديدة وهم مؤمنون كل الإيمان بان الجنة تحت ظلال السيوف[2]، فلا عجــب ان تتشــابه

(١) شعر الحرب حتى ق١هـ/١٢٤ .

(٢) يُنظر: البطولة في الشعر العربي : ٤٤-٤٥ .

(سعادة الاستشهاد بعد ان أدرك هذه الإنسان واقتنع بثواب الآخـــرة، وخلـود الحيـاة ، واستبشاره بلقاء الموت بأي شكل من الأشكال واستدباره الحياة بكل متاعها الزائل )[1].

لقد تحول كل واحد منهم إلى مجاهد شاكي السلاح يطلب الموت والشـــهادة فـي سبيله تعالى ، وأما جماعاتهم فقد تحولت إلى كتائب حربية تُقبل علـــى المـوت بنفـوس متشوقة إليه ، فكأنه الباب الموصد بينها وبين فراديس الجنان لذلك فهي تريد اجتيازه حتى تنتقل إلى حوار الملأ الأعلى في جنان الخلد [2] ، فهذا محمد بن زرعة العبدي الذي انظـمَّ مع اخوته ورفاقه إلى جيش مسلمة بن عبد الملك المتجه إلى قتال الروم يتقدم نحو الأعداء ويرتجز شعراً يرغب فيه نفسه على الإقدام نحو الشهادة ، فهو مؤمن بأنَّ ( الموت لا بـد منه ، وما دام الإنسان يموت فالأجدر به ان تكون ميتته في الحرب ، لأنَّـها أولـى مـن غيرها لما فيهـا ) [3] من الأجر العظيم ، فيها ينال الشهادة ويلحق بإخوانه الخمسة فـي جنات عدن ليس فيها تعب ولا عناء فقال[4]:

إِنْ كَـانَ لا بُـدَّ مَصِـيري لِلفَنَـا ... فَمَا مَقَامي بَعْـدَ خَمْـسٍ هَـهُنَا

إِنْ نِلتُ مَا أَبْغِي فَقَدْ نِلْـتُ المُنَى ... جَنَّاتِ عَدنٍ لَيْسَ فِيهَا مَنْ عَنَـا

(١) شعر الحرب في عصر الرسالة: ٤٧ .

(٢) يُنظر : البطولة في الشعر العربي : ٥٤ .

(٣) البطولة في الشعر العربي : ٥٤ .

(٤) الفتوح: ١٨٢/٧ .

( ومما زاد في انطلاقهم إلى ميادين الجهاد ، واستعدادهم العالي للتضحية إيمانهم المخلص بزوال هذه الدنيا وفنائها ، واعتقادهم الراسخ بخلود الآخرة ) [1] قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2]

لذلك لم يتأخر احمد بن محمد اليشكري عن الإقدام نحو العدو وقتاله فهو أدرك أنه لا خير له في العيش بعد أصحابه الشهداء الخمسة فقد نال ما يكفيه من هذه الحياة الفانية ، فعزم على الإقدام ومواصلة القتال فلا يرجع إلا وهو شهيد محمول قد نال الشهادة فيحل في جنان الله تعالى فقال [3] :

لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ صَحْبِي ... حَسْبِي مِنَ الْعَيْشِ حَسْبُ حَسْبِي

لا أَرجِعُ اليومَ وأَقْضِي نَحبِي ... ثُمَّ أَحَلُّ فِي جِنَانِ ربِّي

فحمل هؤلاء الفتية على الأعداء واقتتلوا قتالا شديدا وهم يخوضون غمرات الموت دون خوف أو تردد بل كانوا (يتوسطونها ، ويصيرون فيها ، ولا يعدلون عنها ، يقاسمون الخصوم سيوفهم ، فتكون المضارب فيهم والمقابض في أيدي الفرسان ) [4] ، فحمل

(١) شعر العقيدة: ١٦٧ .

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٢ .

(٣)الفتوح: ١٨٢/٧ .

(٤) البطل في التراث العربي: ٣٣ .

يعقوب بن عبد الكريم على الأعداء يريد بها بلوغ باب الحصن عندها لحق به اخوته الثلاثة فقاتلوا جميعاً بعضهم إلى بعض حتى صاروا إلى باب حصن طوانة [1] ، فجعلوا يقاتلون أشد القتال حتى انكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة وانصرفوا إلى حصونهم وأسوارهم يختبئون خلفها [2] . فلما رأى المسلمون ذلك انقسموا لى قسمين : قسم يقاتلون وقسم ينقبون السور فما زالوا كذلك حتى أحدثوا في السور نقباً واسعاً كان كفيلا لئن يكون يعقوب بن عبد الكريم أول المتقدمين إلى الأعداء إذ دخل هذا المجاهد من هذا النقب إلى حصن الأعداء وجعل يقاتل أهل الحصن وحده فما زال يقاتلهم حتى قطعت إحدى قدميه[3]. لكن هذه القدم التي فقدها لم تثنه عن مواصلة القتال لأنه مؤمن صابر على مصابه كما إنَّه قد احتسبها عند الله تعالى الذي سيرفع درجته ويزيد ثوابه [4] ، فوثب قائما على فرد قدم يقاتلهم وهو يرجو أنْ ينال الجنة التي سبقه إليها أولئك الفتية فإذا ما اضطرمت الحرب واصل القتال وهو حريص الحرص كله على الشهادة دون أنْ يتقهقر لأنه يخاف الله تعالى ، فقال [5] :

أَرْجُو جِنَانًا حَقَّقَتْ كُلَّ النَّعَمْ  مَعَ فِتيةٍ كَانُوا لَعَمْرِي كَالبَهَمْ
فِي مَجمعِ الحَرْبِ إِذَا الحَربُ اضْطَرَمْ  خَوْفاً مِن اللهِ العَزِيزِ ذِي النِّقَمْ

فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك حتى دخل إليه اخوته الثلاثة فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب ، ثم إنَّهم كبروا وصاحوا بأصحاب مسلمة فدخل الناس من ذلك النقب وفتحوا باب الحصن والأنصاري ينزف الدم من رجله حتى مات شهيدا رحمه الله وقتل اخوته الثلاثة الذين كانوا معه "رحمهم الله" [6] .

إنَّ هذه المنزلة الرفيعة ما أدرك فضلها وعرف قيمتها العربي المسلم بل وجد البحث أنَّ من غير العرب قد أحبوا هذه المنزلة العظيمة وعرفوا فضلها وأجرها عند الله تعالى

(١) طوانة : بلد بثغور المصيصة . يُنظر: معجم البلدان: ٦/٢٢٩ .
(٢) يُنظر: الفتوح: ٧/١٨٢ .
(٣) يُنظر: المصدر نفسه : ٧/١٨٣ .
(٤) ينظر : الشعر العقيدة: ١٧٤.
(٥) الفتوح: ٧/١٨٣ .
(٦) يُنظر: المصدر نفسه .

ففي جيش القائد المجاهد الجراح بن عبد الله الحكمي كان رجل مجوسي اسمه مردان شاه قد قال للجراح وهو ينوي الهجوم على الأعداء: ( أيها الأمير ألستم تزعمون في دينكم أن الرجل إذا كان مخالفا لكم ثم إنه شهد بشهادة الحق وضرب بسيفه في المشركين حتى يقتل فإنه في الجنة شهيد ؟ فقال له الجراح: بلى يا مردان شاه! إنا نقول ذلك ولا نشك فيه! فخرج الدهقان بسكين كان معه فقطع كشحا كان في وسطه ، ثم نزع ثيابه وشهد بشهادة الحق ثم أخذ سيفه وتقدم نحو الخزر فلم يزل يقاتل حتى قتل ) [1] .

هكذا كان سعيهم وحرصهم على الشهادة التي بها ينتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء وفي جنات عرضها السموات والأرض .

---

(١) الفتوح: ٨/٤٠ .

## المبحث الثاني
## صفات الشهيد

### ١. الشجاعة:

عرفنا الشجاعة صفة من صفات عدة اتصف بها العربي في مجتمعه قبل الإسلام ، الذي شهد حروباً كثيرةً دامت أياماً طوالا ، أما بسبب اقتصادي وهو الإغارة على قبيلة والاستيلاء على ممتلكاتها ، أو بسبب قبلي تعصبي وهو الأخذ بالثأر ، فشجاعة العربي قبل الإسلام لا تتعدى هذين المجالين أو المنفذين .

أما في عصر صدر الإسلام فإن مقياس الشجاعة قد تبدل ، فتحولت إلى سلاح خدم الدعوة الإسلامية من خلال شهداء ذلك العصر الأبرار ، الذين تجسدت في أفعالهم الشجاعة خير تجسيد ، فعرفناهم أبطالا منذ الوهلة الأولى ، منذ أن كانوا دعاة مستضعفين، وأصبحوا نماذج تقتدي حين قاتلوا الكفار وهم قلة منتصرون ، فهابهم الأعداء وخشي لقاءهم الفرسان ، فدخلوا بلاد أعدائهم فاتحين ومحررين وهادين إلى الخير المبين.

إنَّ شجاعة شهداء عصر صدر الإسلام كانت حافزاً ودافعاً لمجاهدي هذا العصر على مواصلة المسيرة وابلاغ الرسالة ، فانطلقت جيوش المؤمنين إلى بلاد بعيدة غريبة ، وهي تستمد عزيمتها من بطولات أولئك الرجال ، رجال بدر وأُحُد ، وحنين واليمامة والقادسية ( التي وضعت بداية موفقة للانتقال إلى واقع جديد تحركت فيه عناصر الاقتدار وتوافقت في قيادته روح الإبداع وبرزت في كل مجالاته صورة التمكن الفذ والتحدي الواضح والقيادة الحكيمة ) [١] ، فأصبح المجاهدون يحاربون (دفاعاً عن العقيدة وذبا عن شر بعتها وحماية لحياضها وأوطانها ، فهو قتال لمبدأ لا لهوى ولا لثأر ) [٢] ، فهم (أدركوا هذا تمام الإدراك يوم أن اتخذوا هذه العقيدة دينا ، ويوم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذي بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية وأبدلهم من بعد ضعف قوة ، وجعلهم يشعرون بأنهم دائما منتصرون ما داموا جندا في سبيل إعلاء كلمته ) [٣] . وتجسدت لنا هذه الأحاسيس وهذه المشاعر الإيمانية في شخص عبد العزيز بن زارة بن حرب الذي

---

(١) اتجاهات جديدة في شعر الحرب في القرن الأول الهجري: ٢٨٨ .

(٢) الجهاد في شعر عصر الرسالة: ١١٨-١١٩ .

(٣) شعر الفتوح الإسلامية: ٢٧٤ .

رأيناه يقاتل الأعداء بشجاعة الليوث وهو يتعرض للشهادة فما زال يقاتل بـــهذه البطولـــة وهو يقتحم الصفوف حتى فاز بمرتبة الشهادة في سبيله تعالى ، فلما وصل نبأ استشـــهاده إلى مسامع أبيه استذكر شجاعته فقال [1] :

أَلَا زَانَ قَتْـــلُ عَبْـــــدِ العَزِيـــــزِ يَصْلَى الحُـــروب وَسَـــدَ الثُغُـــورَا

إن الشجاعة كانت سلاح مجاهدي هذا العصر في نيل الشـــهادة فلـــولا شـــجاعتهم ومعرفتهم بأساليب الحرب والقتال ما استطاعوا مواكبة قوافل الفاتحين وخوض المعـــارك التي خاضتها هذه القوافل وما استطاعوا الإقدام نحو الأعداء ومبارزة فرسانهم وقتل قســما منهم، فعندما سار القائد المجاهد مسلمة بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الروم التحق به الفتية المدنيون الذين اثبتوا حبهم وحرصهم للفوز بمرتبة الشهادة في سبيله تعـــالى فلمـــا دارت الحرب وعلا صوت صليل سيوفها قتل هارون بن الحصين وأخوه احمد شـــهيدين في سبيل الله تعالى بعد ان قاتلا الأعداء بشجاعة وثبـــات [2]، وتبقـــى ( صـــور البطـــل والمعركة تثير في النفوس الاندفاع والاستبسال من أجل الاستشهاد والدفاع وتذكي عناصر الحماسة والاقتتال والجلاد للوقوف فوق أرض المعركة وقوفاً مشرفاً ) [3] .

(١) تاريخ ابن عساكر: ٥/٣٧٤ .

(٢) يُنظر: الفتوح: ٧/١٨٠ .

(٣) الأدب والالتزام: ٨٠ .

فخرج من بعدهما المجاهد سعيد بن إسماعيل الاسدي يريد اللحاق برفيقيه الشهيدين فتقدم نحو ذلك العلج فالتقيا وتبارزا بضربتين ضربة الاسدي ضربة جندله قتيلاً [1] ، فخرج من بعده علج آخر يقال له قسطنطين الأصغر ، فقصد نحوه الاسدي دون هوادة أو تردد فهو رجل الحرب [2] وليث سلس القياد ، ذو صولة قاصمة يكرهها الأعداء فانشد[3]:

يَـا أَيُّـها الدَّاعـي إلى الجِـلادِ  في حَوْمَـةِ الأَبْطَـالِ والأَنْجَـادِ
أَتَـاكَ لَيْـثٌ سَـلِسُ القِيَـادِ  ذُو صَوْلَـةٍ يَكْرَهُـهَا الأَعَـادِي

فتطاعنا برمحيهما دون أن يصيب أحداً منهما ، عندها تضاربا بسيفيهما فلم يصنعا شيئا فاعتنق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما إلى الأرض فشد عليه العلج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله شهيدا "رحمه الله تعالى" [4].

فكان لاستشهاده أثر في نفوس رفاقه واخوته ، وكان لصوت شعره أثرٌ إيجابي لديهم ، فصوت ( الشعر يرتفع في كل موقف ويسهم في كل معركة وهو يؤدي دوره في التعبير عن الحس القتالي ، والإيمان الواثق ، والعزيمة الرائدة ، وتظل في مظامينه الحية تستقر القيم التي حملها المقاتلون ، ودللوا عليها وهم يقدمون ) [5] نحو الأعداء يقتلونهم

---

(١) يُنظر: الفتوح: ٧/١٨٠ .

(٢) يُنظر: البطل في شعر الحماسة : ٢٥٤ .

(٣) الفتوح : ٧/١٨٠

(٤) يُنظر: المصدر نفسه.

(٥) شعر الحرب في عصر الرسالة: ٧٩ .

كي ينالوا الشهادة في سبيله تعالى فهذا يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري يتأثر لاستشـــهاد صاحبه ويستجيب لصوت شعره الداعي إلى الجهاد والإستشهاد ، فيقدم نحو هذا العلـــج فيتمكن من قتله [1] .

ويتواصل القتال ويتبارز الفرسان فما زالوا كذلك يتقاتلون حتى دخل هذا المجـــاهد يعقوب بن عبد الكريم من ثقب حصن العدو ، وجعل يقاتل أهل الحصن وحـــده بشـــجاعة وثبات فما زال على هذه الحالة يقاتل حتى قطعت إحدى قدميه ، لكنه وثب قائما على تلـك الحالة يقاتلهم على فرد قدم ، فهو بطل شجاع ( والبطل لن يخسر شيئا غير "بدنه الفـــاني" لكنه سيكسب الخلود المعنوي ( الذكر الحسن ) بفضل البطولة والفداء ) [2] في حياته الدنيا ، وينال الشهادة في حياته الآخرة ، فانشد شعراً بين فيه شجاعته وثباته ، وصـــبره علـــى آلامه وجهاده الأعداء ، فقال [3] :

أَضْرِبُ بالسَّيفِ عَلَىٰ فَرْدِ قَـــدَم  والحُرُّ لا يَجْـــزَعُ مِـــنْ وَقْـــعِ الأَلَمَ
والموتُ بَعْدَ الإلف أَشْفَى للقَـــرَم  مَعَ الذي أَرْجُوه مِن بَارِي النَسَـــم

فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك النقب حتى دخل إليـــه أخوتـــه فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب ، فكبروا منتصرين وصـــاحوا بأصحـــاب مسـلمة

(١) يُنظر: الفتوح: ١٨٠/٧ .

(٢) فلسفة البطولة والفداء في التراث القديم والأخلاق الفاضلة: ١٤٢ ، ( بحث ) علي حسين الجابري – مجلة آفاق عربيـة – ع ٨ – السنة السابعة ١٩٨٢ .

(٣) الفتوح: ١٨٣/٧.

فدخلوا، أما الأنصاري المجاهد فما زال ينزف الدم من رجله حتى مات شهيدا " رحمه الله تعالى " [١] .

إنَّ بطولة هذا المجاهد الشهيد ( كانت نابعة من إيمانه بالقدر وإيمانه بالخلود واعتقاده بالقضية الحية التي يطيب من اجلها الاستشهاد ، ويحمد فيها الخلود ، ويستطاب بذكرها الحديث الدائم ، وقد دفعه هذا الإيمان إلى ان يخوض الحرب بلا خوف ويصارع الطغيان بلا هوادة وينشد الحرية بلا تردد ) [٢] .

إن هذا النصر ما تحقق لولا شجاعة هؤلاء الشهداء الذين عطروا بدمائهم الطاهرة هذا النصر فأصبحت هذه الدماء وقود سراج المجاهدين يضيء لهم الطريق كي يواصلوا الجهد نحو أعداء الإسلام الكافرين ، فسار مسلمة بجيشه حتى صاف الروم ، فصهلت الخيل وتداعت الفرسان [٣] .

وكانت معاني الحماسة والفخر تزهو فوق ألق الألفاظ وتلتمع في سطور أناشيدهم الجهادية ، وقد ازدهرت فيها الجرأة واندفع في سيل مضامينها حب الاستشهاد ، فالإشادة بالإقدام ، والاعتزاز بالبلاء الحسن ، والموت في سبيل الدفاع عن العقيدة كانت مكارم محمودة ، وغايات مقصودة تثير في قلوب المؤمنين نوازع التضحية[٤] ، فاخذ فرسان المسلمين يتقدمون نحو الأعداء واحدا بعد الآخر وهم يتناشدون أراجيز البطولة .

---

(١) يُنظر : الفتوح : ٧/١٨٢- ١٨٣ .

(٢) شعر الحرب حتى ق ١هـ /٢٧٧.

(٣) يُنظر : الفتوح: ٧/١٨٤- ١٨٥ .

(٤) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ /١٤٥ .

فهذا محمد بن عبد العزيز يتقدم نحوهم وهو ينشد رجزه الجهادي الذي أكد فيه أصالة نسبه ، فهو ابن فارس شجاع وفي يمينه حسام صارم يقطع الرؤوس فقال[1] :

أَنَا ابن ذِي الفَضْلِ الكَرِيمِ المَاجِدِ عبد العزيز القَرم ذي المَحَامِدِ

وفي يميني مُرهَف الحدائِدِ يَخْتَرِم الرؤوس مَعَ القَمَاحِدِ[2]

فحمل ساعة يقاتل الأعداء حتى رجع مجروحا ، عندها ترجل مسلمة بن عبد الملك عن من فرسه ونزل من فرسان المسلمين معه ، فتقدموا نحو الأعداء واشتد قتالهم حتى كتب الله تعالى لهم النصر لما رأى من صدقهم في جهاد الأعداء [3] .

ومع كل نصر يتحقق لهذا القائد وجنده المجاهدين ، نجدهم يزدادون عزيمة على مواصلة الجهاد ، ( فهذه الطلائع قد عرفت أبعاد هذه الحالة الجديدة ، وتلمست مواطن المسؤولية التي يمكن أن تقدمها وهي تتحرك بقوة الإيمان وتندفع بعقيدة التوحيد وتقاوم بصلابة الرسالة التي عرفت في رجالها الأوائل حقيقة الصوت الإلهي ، وجوهر الوجود الإنساني ، وعمق التوجه الذي يمسح عن وجوه البائسين كل إمارات البؤس المرير وأخاديد الاستعباد القاتل ) [4] .

---

(١) الفتوح: ١٨٦/٧ .

(٢) القمحدة : الهنة الناشزة فوق القفا وهي بين الذؤابة والقفا ، منحدرة عن الهامة إذا استلقى الرجل أصابت الأرض من رأسه. يُنظر : اللسان : ٣٧٣٥/٥ ( قمحد ) .

(٣) يُنظر: الفتوح: ١٨٦/٧ .

(٤) شعر الحرب حتى ق١هـ/٢٥٩ .

فجمع جنده وسار بهم نحو الأعداء يريد المسيحية ، فدارت الحرب بينهما ، وحملت الروم على المسلمين ، وجعل الشماس البطريق يحمل على المسلمين حملة ويقتل منهم ويرجع إلى أصحابه حتى قتل نفراً من المسلمين .

وحملت جماعة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المجاهدين شهداء في سبيل الله تعالى ، ثم تقدم افريطون في جمهرة من بطارقة الروم ، فجعل يقاتل المسلمين ، عندها تقدم نحوه مجاهد شجاع قد خبر أساليب القتال فهذا محمد بن عبد العزيز يتقدم على فرس له أصدى[1] ، فهو ( المغوار الذي لا يكل عن القتال، ولا يرتد عندما تدلهم الخطوب) [2] فتقدم راجزاً وهو يقول [3] :

قَد عَلِمَ الروم وَمَنْ وَالاهَا ... وَكُلُّ عِلْجٍ أَقْلَفَ سَاوَاهَا

إِنِّي إذا الحرب خَبَتْ لظاهَا ... ألقيتُ أُخراها عَلَىٰ أُولاهَا

فهو فارس شجاع قد أدرك الروم شجاعته في معارك سابقة خاضها معهم ، فاختلف مع افريطون بطعنتين ، فطعنه افريطون طعنة قتله بها شهيدا رحمه الله تعالى ، فاغتم المسلمون لاستشهاد وعزموا على الثار له ، فكان لهم ذلك عندما قتلوا قائد الروم [4] .

---

(١) يُنظر : الفتوح: ١٨٦/٧-١٩١ .

(٢) حول البطولة في الأدب العربي بعد ظهور الإسلام :١٥. د. صلاح خالص – مجلة الآداب ، العدد الاول – السنة السابعة، ١٩٥٩.

(٣) الفتوح: ١٩١/٧ .

(٤) يُنظر: الفتوح: ٧/ ١٩١ –١٩٢ .

وبعد كل معركة يتوج فيها نصر المجاهدين ، يكتب قائد جيش المسلمين رسالة إلى خليفة المسلمين ، معطرة بنقاء التضحية ، ومكتوبة بمداد الاستشهاد ، مستمدة عباراتها من روائع البطولة وهي تعيش في خضم كل ملحمة يسجلها الرجال الأشداء [١] .

وعقب كل انتصار تحققه هذه الجحافل المؤمنة ، ينطلق فرسان العقيدة إلى خوض غمار معارك جديدة ليكتب لهم التاريخ شرف الجهاد في سبيل الله يدفعهم إلى ذلك إيمانهم الصادق ، والعقيدة الراسخة [٢]. كما ( اجتذب ألق الجهاد أيضا جميع الشعراء المسلمين الذين استبدت بهم روح الشوق إلى ساحات الشرف والفداء ، فاستجابوا لداعي الحق ، وكانوا في طليعة الجيوش الإسلامية الزاحفة ) [٣] ، فشاركوا إخوانهم المجاهدين القتال وهم يتنقلون من مكان إلى آخر ، ومن نصر إلى نصر .

وفي كل منازلة يخوض غمارها جيش الإسلام ، كانت هناك بطولات أبداها الشعراء المسلمون الذين حملوا راية الجهاد ، ونشر رسالة الإسلام ، فاستشهدوا في معارك الشرف ضد أعداء الإسلام وهم يذودون عن عقيدة الإسلام [٤] ، ففي ما مضى رأينا شجاعة مالك بن الريب وتضحيته في سبيل الله تعالى ، وهذا شاعر مجاهد آخر انه المغيرة بن حبناء التميمي الذي شارك المجاهدين قتالهم ، ( فكان صورة حية ونابضة وقد كانت حياته الحافلة بكل ضروب الشجاعة نموذجا من نماذج التضحية كما كانت نهايته مشرفة وخالدة يمكن ان تضع الخطوط الحقيقية التي كانت تفرض على حياته مسيرتها ، وتلزمه باتخاذ المسلك السليم الذي حدده لنفسه وترسم له طريق الحياة الصائب الذي دافع

---

(١) يُنظر : اتجاهات جديدة في شعر الحرب في ق١هـ/٢٩٠ .

(٢) يُنظر: الفروسية في أدب ق١هـ ٦٦ .

(٣) الإسلام والشعر: ٩٧ .د. سامي مكي العاني .

(٤) يُنظر: شعر الحرب حتى ق١هـ /٢٧٩ .

عنه في حياته وشعره ) [1]، حتى كان استشهاده بعد أن قاتل مع القائد المسلم الشجاع قتيبة بن مسلم الباهلي قتال الأبطال ، وشهد معاركه الحاسمة ، فكان أحد الفرسان في بلاد خراسان [2].

إن اشتراك المغيرة في الحرب وبشكل متقدم أعطاه فرصة الاستبسال وحقق به قدرة التجاوز ، فكان شهيدا مع بقية الشهداء الذين خلد التاريخ أسماءهم وكأنه أراد أن يظل خالداً حتى في طريقة استشهاده ، فعندما أُصيب المُغيرة واثخنت جراحة غمس إصبعه في دمه ، وخط على صدره بدمه الطاهر أنا المغيرة بن حبناء [3] ( فكان بطلا حتى في حالة الاستشهاد وإنسانا حتى في طريقة التضحية وخالدا حتى في حالات الموت، وبعد ان ستقر في ميتته الحرة سلم روحه إلى الخالق الكريم فكان بطلا خالدا وتضحيته نادرة ، ونموذجاً رائعاً ، فسجل لنفسه لقب الشاعر البطل والفارس الجريء الذي وسد جسده تراب الأرض في نسف [4] ... ، فظل قبره في هذه المدينة شاهدا حيا من شواهد البطولة ، ورمزا من رموز الاقتدار العربي الذي آلى على نفسه أن يعيش حراً ويقاتل جريئا ويستشهد مقاتلا بطلا ) [5] . ( وحين تكون التضحية على هذه الشاكلة في أعلى درجاتها تنتفي صور الكذب والنفعية والازدواجية في سيرة البطل ، فتبقى إزاءها صور الصدق والثبات حية الملامح متجاوزة الزمان والمكان إلى جانب

---

(١) شعر الحرب حتى ق١هـ / ٢٧٩ .

(٢) يُنظر: الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي: ٣٠٥ و ٣٩٢ .

(٣) يُنظر: الأغاني ١١٢/١٣ .

(٤) نسف : هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل تقع بين جيحون وسمرقند وهي على مدرج بخارى وبلخ .
يُنظر: معجم البلدان ٣٧٨/٨ .

(٥) شعر الحرب حتى ق١هـ/ ٢٨٠ .

احتفاء الناس بها إكباراً واقتداء ) [1] ، فكانت هذه التضحية وهذه البطولة صفة من صفاتهم الجهادية ، وهم يجوبون بلاد ما وراء النهر فاتحين ومحررين ، وتتجلى هذه الصفة أكثر وضوحاً عند وفود قادة المسلمين إلى ملوك الكفر والإلحاد ، فأرهبتهم وجعلتهم أذلة مستضعفين ، فعندما أصبح قتيبة بن مسلم الباهلي على مقربة من الصين ، كتب إليه ملكهم: أَنْ ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ، ونسأله عن دينكم ، فانتخب قتيبة من عسكره عدداً من الرجال الأشداء وجعل عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي [2] ، فأراد قتيبة أَنْ يختبر كفاءة هذا المجاهد ، فقال له: كيف أنت صانع؟ فقال : أُصلح الله الأمير ، قَد كُفيتُ الأَدب ، وَقُلّ مَا شِئت اقله وَآخذ به ، عندها قال لهم قتيبة : سيروا على بركة الله وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه فاعلموه أني قد حلفت أَلاَّ انصرف حتى أُطأ بلادهم ، واختم ملوكهم ، وأُجبي خراجهم [3] .

فسار الوفد وعليهم هبيرة بن المشمرج ، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدارت بينه وبينهم محاورات كثيرة ، ولقاءات متعددة ، بعدها قال لهم ملك الصين: ما أَحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلاَّ بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، فقال له هبيرة: وكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً وغزاك ، وأَمَّا تخويفك إيَّانا بالقتل فَإِنَّ لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمنا القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه ، فقال له الملك: فما الذي يرضي صاحبك قال هبيرة : إِنَّه قد حلف أَلاَّ ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وَيُعْطَى الجزية [4]. وفي هذا اللقاء يتضح لنا صدق العقيدة التي آمن بها هؤلاء المجاهدون ، وسلامة المنهج

---

(١) البطل في الشعر الحماسة: ٢٤٩ .

(٢) هو هبيرة بن مشمرج الكلابي أحد الأشراف الشجعان ، كان مع قتيبة حين غزا الصين ، وأوفده قتيبة إلى ملكها رسولا ونذيرا ، فأدى الرسالة وأعجب به ملك الصين فعاد إلى قتيبة الذي سيره إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان فمات في طريقه ، فهو ان شاء الله تعالى شهيد لانه كما تقدم خرج مجاهدا في سبيله تعالى ينشر رسالته إلى ملوك العالم وقد مات في هذا السبيل . ينظر: تاريخ الطبري: ٨/ ١٠٠ – ١٠١ .

(٣) يُنظر : المصدر نفسه: ٨/١٠٠ .

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٨/ ١٠١ .

الذي ساروا عليه ، وقاتلوا الأعداء من أجله ، فلم يقبلوا المساومة في دينهم ، فأما أنْ يدخل الأعداء إلى الإسلام طائعين أو يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، فإنْ أبَوا كان القتل مصيرهم .

إنَّ ما أبداه هبيرة من شجاعة أمام ملك الصين جعلت منه ( رمزاً من رموز العقيدة والجرأة ، وبقيت ألفاظه الرائعة وتصرفه الشجاع صوتاً من أصوات الحق الإنساني الذي أراد لأبناء بلاد ما وراء النهر الحياة الكريمة ، والسعادة التي حملتها قوافل التحرير وهي تقطع الأرض الصعبة ، وتجتاز الجبال الوعرة ، وتقتحم الحصون المنيعة ، ولكن قدرة الرجال الذين آمنوا بالحق ، وترسخت أصول الإيمان في قلوبهم كانوا أقوى من كل العوائق ، وأشد من كل الأعداء الكبيرة التي كانت تتوزع من الخوف ، وتتبعثر من السيول الهادرة ، والسيوف المصلته ، والرماح المشرعة وكان هبيرة موضع اعتزاز الشعراء الذين وجدوا فيه صورتهم الرائدة ، وحققوا في ذاته قدرة الإنسان المقاتل وتلمسوا في سلوكه الفذ براعة الرجل المقتدر ) [1] ، فهذا سوادة بن عبد الله السلولي يشيد بشجاعة الوفد الذي أرسله قتيبة ، يقودهم هبيرة بن المشمرج الذي لم يرض بغير الختم على ملوكهم وأن يُعطى الجزية ، فادى رسالة قائده بشجاعة ، ورجع منصوراً تتجه إليه أنظار المجاهدين ، فقال [2] :

لَا عَيْبَ فِي الوَفْدِ الذِينَ بَعَثْتَهُم ... لِلصينِ إنْ سَلَكُوا طَوِيلَ المَنْهَجِ

كَسَرُوا الجُفُونَ عَلَىٰ القَذَىٰ خَوْفَ الرَّ ... دَى حَاشَا الكَرِيمِ هبيرة بن مُشمرَجِ

لم يَرْضَ غَيْرِ الخَتْمِ فِي أَعْنَاقِهِم ... وَرَهَائِنٍ دُفِعَتْ بِحَمْلِ سَرجِ

أَدَّى رِسَالَتَكَ الَّتِي اسْتَرْعَيتَه ... وَأَتَاكَ مِن حنثِ اليَمِينِ بِمَخْرَجِ

وعندما توفاه الله تعالى ، كانت لوفاته ( رنة حزن ، ومبعث أسى في نفوس الرجال الذين وجدوا في فقده خسارة ، وعرفوا في بعده موقعا لا يسد ) [3] ، فهذا سواده يعود

---

(١) شعر الحرب حتى ق١هـ/ ٢٥٣ .

(٢) تاريخ الطبري: ٨/١٠١ .

(٣) شعر الحرب حتى ق١هـ/٢٥٤ .

مرة أخرى لكي يخلد شجاعته ، فقال [1] :

لله قَبْرُ هبيرةَ بن مُشمرجٍ ... مَاذَا تَضَمَّنَ مِن نَدَى وَجَمَالِ

كَانَ الربيعُ إِذَا السُّنونُ تَتَابَعَتْ ... والليثُ عِنْدَ تَكعكُعِ الأَبْطَالِ

بَكَتْ الجِيَادُ الصَّافِنَاتُ لِفَقْدِهِ ... وَبَكَاهُ كُلُّ مُثَقَّفٍ عَسَّالِ

فهو يبكي فيه حسنه وفصاحته وإنسانيته وشجاعته التي أدركتها وعرفتها خيوله التي كان يمتطي صهوتها مجاهداً في سبيل الله تعالى ، وبكت عليه الرماح التي كان يطاعن بها الأعداء ، فهي تسكب الدموع حسرة لفراقه ، كيف لا وهو الأسد المغوار عندما يجبن ويحجب الأبطال [2] .

بأمثال هؤلاء الرجال واصلت جيوش التحرير سيرها نحو أعداء الإسلام الذين رفضوا الامتثال لأوامره ، وفي كل معركة يخوض غمارها هذا الجيش لنا فيها نماذج رائعة من شهداء المسلمين الأبرار الذين قاتلوا بشجاعة وثبات حتى الشهادة ، وأصبحوا موضع إعجاب واقتداء لإخوانهم المجاهدين من خلال رثاء الشعراء لهؤلاء الشهداء فرثاء الشهداء ليس ( غرضاً مقصوداً لذاته بقدر ما كان إظهاراً لمشاعر الود والوفاء ، والاخوة الصادقة ، ودعوة للاقتداء بالشهداء والاهتداء بتضحياتهم ) [3] ، فهذا الشمردل اليربوعي يظهر صدق مشاعر الود والوفاء تجاه اخوته الثلاثة الذين خرجوا يؤدون مهمتهم في صفوف جيش التحرير [4] ، فقد استشهد وائل وهو يقاتل الفرس ، وقدامة في بلاد فارس ، وحكم في سجستان [5] ، فأخوه وائل كان فارساً شجاعاً إلى درجة أنَّ الأرض التي دفن فيها قد فرحت بضمها جسده الطاهر ، لأنها تريد أنْ تزين به من دفن فيها ، فهو

(١) تاريخ الطبري: ٨/١٠١ .

(٢) ينظر: الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي : ٢٢٥ .

(٣) نظرات في شعر صدر الإسلام: ٦٠-٦١ .

(٤) ينظر : شعر الحرب حتى ق١هـ/٢٩٣ .

(٥) ينظر: الأغاني: ١٣/٣٧٨-٣٨١ ، وشعر الحرب حتى ق١هـ /٢٩٣ .

بطل شجاع كان يتقي به الثغر المخوف فقال [1] :

وَحَلَّتْ به أثقالها الأرضُ وَانْتَهَى ... بِمُثْوَاه مِنْهَا وَهو عفٌّ مَاكِلُه

لَقَدْ ضَمَّنَتْ جِلد القَوِي كَانَ يتَّقِي ... بِهِ جَانِبُ الثَّغْرِ المخوف زَلَازِلُه

بوجوده يحمى الحمى ، ويصان العرض[2] ، فهو رجل شجاع قد خبر أساليب الحرب ، فهو الذي يذاد به ، خاصة عندما يحمل سيفه المجرد ، عندها أصبح أسداً شجاعاً، وقد كان هذا الفارس حامي الثمردل ، ومدافعاً عنه الأعداء أما الآن فقد غلبه من المقدار من لا يقاتله ، فقال الثمردل [3] :

وَثِقْنَ بِهِ عِنْدَ الحَفِيظَةِ فَارْعَوَىٰ ... إِلَى صَوْتِهِ جَارَاتُهُ وَحَلَائِلُه

إِلَى ذَائِدٍ فِي الحَرْبِ لَمْ يَكُ خَامِلاً ... إِذَا عَاذَ بِالسَّيْفِ المُجَرَّدِ حَامِلُه

وَمَا كُنْتُ أُلْفِي لامرئٍ عِنْدَ مَوطِنٍ ... أَخاً بِأَخِي لَوْ كَانَ حَيّاً أُبَادِلُه

وَكُنْتُ بِهِ أَغْشَى القِتَالَ فَعَزَّنِي ... عَلَيْهِ مِن المِقْدَارِ مَنْ لا أُقَاتِلُه

ثم جاءه نبأ استشهاد الحكم ، فاحتسبه شهيداً في سبيل الله تعالى ، فمضى لسبيله لم يعط ضيما ولم ترهب غوائله الأداني ، وقد كان رجل الحروب المتواصلة ، فهو قتيل ليس مثل قاتله الذي كان يرتعد خوفاً من خوض الحرب ، فهابه الأعداء وخشي لقاءه الفرسان ؛ فهو حامي الثغور لا يخشى عليه ، فقال الثمردل موثقا ذلك [4] :

مَضَى لِسَبِيلِهِ لَمْ يُعْطِ ضَيْماً ... وَلَمْ تَرْهَبْ غَوَائِلُه الأَدَانِي

قَتَلْنَا عَنْهُ قَاتِلَه وَكُنَّا ... نَصُولُ بِهِ لَدَى الحَرْبِ العَوَانِ

قَتِيلاً لَيْسَ مِثْلَ أَخِي إِذَا مَا ... بَدَا الخَفَرَاتُ مِن هَوْلِ الجِنَانِ

وَكَانَ يَهَابُكَ الأَعْدَاءُ فِينَا ... وَلَا أَخْشَى وَرَاءَكَ مَنْ رَمَانِي

---

(١) شعراء أمويون: ق٢/٥٤٥ . دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل .

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ق٢/ ٥٠٩.

(٣) المصدر نفسه: ق٢/٥٤٤ .

(٤) المصدر نفسه .

فهو لم يكن ضعيفاً ولا مسترخياً ، وهذه الشجاعة وهذه البطولة عندما ترحل فإنَّ لها أثراً على من كان يحميه ، لذلك أبدى الأعداء شجاعتهم على أخيه واستضعفوا وحدته ، فقال الشمردل وقد استذكر شجاعة أخيه [1]:

فَلا تَبعد فَلَمْ تَـــكُ مُرثعنـــاً ... وَلَا خَطِل اليَدين ولا اللســـانِ

فَقَد أَبْدَوا ضَغائِنَهُم وَشـــدوا ... إِليَّ الطَرْفَ واغتمـــزُوا لِيَـــابِي

فَدَاكَ أَخٌ نَبَـــا عَنْـــهُ غَنـــاهُ ... وَمَولىً لَا تَصُـــولُ لَـــهُ يَـــدَانِ

وجدير بالذكر أَنَّ البطولة العربية في عصر ما قبل الإسلام لم تكن تنحصـــر فـــي نطاق الحرب ، بل كانت تتجاوزه إلى آفاق أخرى ، فبينما كان أخيل في الإلياذة محاربـــاً جباراً يبطش بالأعداء ويشتفي بهم من حقده وغضبه ، وتراه متكبراً مزهواً بنفسه خشـــناً في عمله وقوله ، جافياً في طباعه نجد العرب قبل الإسلام يفهمون البطولة علـــى نحـــو آخر، ويسعون إلى أَنْ يجمعوا في شخوص الأبطال الشجاعة والعفـــة وشـــرف الأصـــل والسماحة والحلم والعقل والأدب وغير ذلك من الفضائل التي كانوا يقدسونها [2]، فمع مـــا أوتي أخواه قدامه ووائل من الشجاعة التي تتيح لهما تحقيق مآربهما كانا يعملان جـــاهدين على قهر غرائز التوقد من الغيظ والتسرع ، بل لكانتهما يجدان لذتهما في قهرها [3]، لذلك تتحاجز أيدي جهل القوم عنهما ، لما اتصفا به من حلم ، فقال الشمردل مجسداً ذلك [4]:

وَكَانَا إِذَا أَيْدِي الغضَابِ تَحَطَّمَـــتْ ... لِوَاغِرِ صَدرٍ أَوْ ضَغَائِنِ مَن تَبَـــلِ [5]

تَحَاجَزَ أَيدِي جُهَّلِ القَـــومِ عَنْـــهُمَا ... إِذَا أَتْعَبَ الحِلْمُ التَرَّعُ بِالجَـــهْلِ [6]

ونجد الشمردل أيضا قد استجمع في شخوص اخوته الثلاثة شرف الأصل والسماحة والعقل ، وشجاعتهم وقدرتهم على رد خيل القوم إذا ما وَلَّت هاربة ، فقال [7]:

---

(١) شعراء أمويون: ق ٢ /٥٥٤ .

(٢) ينظر: الفحر الملحمي: ٦٦ ، احمد أبو حاقة . نقلا عن البطل في شعر الحماسة: ٢٥٠

(٣) ينظر: البطولة في الشعر العربي: ١٤-١٥ .

(٤) شعراء أمويون: ق٢/ ٥٤٨ .

(٥) الوغر: التوقد من الغيظ ، والتبل: العداوة . ينظر: اللسان: ٤٨٧٨/٦ ( وغر) ، و ٤١٩/١ (تبل) .

(٦) التترع: التسرع . ينظر: المصدر نفسه : ٤٢٨/١ ( ترع ) .

(٧) شعراء أمويون: ق٢/ ٥٥١-٥٥٢.

لَيْسُوا كَثَعْلَبَةَ المغبوط جَارُهم ... كَأنه في ذُرَى ثَهلانَ أو خِيمِ [1]
يُشبِهون قريشاً من تكلُّمهم ... وَطُول أنضية الأعْنَاقِ والأمَمِ
جُزوا النَواصِي من عَجْل وَقَد وطِئوا ... بالخَيل رَهْطَ أبي الصَّهباءِ والحُطَمِ
وَيَوْمَ أفلتهنَّ الحَوفزانُ وَقَد ... شَالَتْ عَلَيهِ أكُفُّ القَومِ بالجذمِ

فنحن نرى الدور المهم الذي يقوم به الشعر في توثيق بطولات الشهداء من خلال الملاحم التي خاضوها وما كان فيها من إقدام وبسالة ، وصور رائعة للتضحية والفداء[2]، فالفرزدق يبين لنا من خلال شعره الذي رثى به ابن أخيه محمد [3] ، شجاعته فهو فارس مقدام يمتلك سيفاً حاداً ، وإذا ما أُدخل سيفه في غمده تمزق من شدة حدته ، لذلك فان ضربته قاطعة لا تخطئ هدفها ، وبهذا الحسام القاطع الذي ملكته قبضة يده اليمنى ، ملك به حياة الهالكين فَإنْ شاء قضى عليهم وَإنْ شاء خلى عنهم ( فهو بذلك يعطي لاحتكامه إلى سيف وإيغاله في الضرب الموجع كل المبررات التي تنأى عن اللوم والمؤاخذة ) [4] ، فقال الفرزدق [5]:

عَلَى مِثْلِ نَصْلِ السَّيفِ مَزَّقَ غمْدَهُ ... مَضَارِبُ مِنْهُ لا يُفَلُّ حُسَامُهَا
وَكَانَتْ حَيَاةَ الهَالكينَ يَمِينُهُ ... وَلِلبَيتِ وَالأبطال فيها سمامُهَا

إنَّه فتى شجاع ، والشباب هم الأكثر اندفاعا إلى الموت بشجاعة [6] ، فإذا ما رأته الأرض تفرق ترابها خوفا منه ، فقال [7]:

---

(١) ثهلان وخيم : جبلان ، يُنظر: معجم البلدان: ١٨/٣ و ٢٦٦/٣ .

(٢) يُنظر: الأدب في عصر نسوة ولرأتدين: ٣٠٧

(٣) هو محمد بن الاحطل ، و لاحطل لقب واسمه همبم بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ... ، خرج محاهدا مع جيش سليمان بن عبد الملك بن مروان المتوجه إلى غزو الروم ، وقد عسكر هذا الجيش في مدينة أربحا التي مات فيها هذا المجاهد . فهو ان شاء الله شهيد لانه مات في سبيله تعالى . يُنظر : الأغاني: ٢٣٨/٢١، والكامل في التاريخ: ٢٦/٥-٢٧ والفرزدق: ١١٤ و ١٣٨ و ٤٢٣ . د. شاكر الفحام .

(٤) البطل في شعر الحماسة: ٢٥٥ .

(٥) شرح ديوان الفرزدق: ٧٥٢/٢ . جمع وتحقيق : عبد الله الصاوي .

(٦) يُنظر : الأشباه والنظائر: ١١٢/١ .

(٧) شرح ديوان الفرزدق: ٧٥٢/٢ .

وَكَـانَ إِذَا أَرْضٌ رَأَتْـهُ تَزَيَّلَـــت لِرُؤيته صَحْراؤُهَا وإكمامُـــهَا

لقد كان هذا الفتى يعطي السيف حقه في الانتقام من الأعداء ، كما كان يُتعب جواده من كثرة امتطائه صهوته ، فقال [1]:

فتى كان لا يبلـــي الإزارَ وســيفه به للموالي في التُرابِ انتقامـــهَا

وقد كان متعاب المطيَّ على الوجـا وبالسَّيف زاد المرملين إعتامـــها

وهو البطل الذي يعدونه ذخيرة لوقت الخطر،أهلا للاعتماد عليه في القتال فقال[2]:

وما من فتىً كنَّا نبيع محمـــداً به حين تعتزُّ الأمـــور عظامُـــهَا

وفي كل معركة يخوضها جيش التحرير كانت جحـــافل الشـعراء فـي مقدمتـها (يسجلون لهذا الدين أروع صفحاته ، ولهذا الجهاد اصدع دلائله ) [3] ، فشاركوا في هـــذا الجهاد ووضعوا أنفسهم في إطار الدعوة التي حملت الخير لكل البشرية التي أثقلتها أصفاد العبودية وأحاطت بها أستار الظلم وأحدقت بها نفوس الطغاة وقد أخذت هذه الجحافل على نفسها أنْ تكـون وفيةً في عطائهـا ، مخلصة في جهادها الأعداء [4]، ( يحدوهم الـهدف النبيل الذي خرجوا من أجله ، وهو النصر لاعلاء كلمة الله أو الشهادة ودخول الجنـة) [5] ، فهذا ثابت قطنة فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية أبلى بلاءً حسناً في الجهاد وهـو يشارك قوافل المجاهدين فوثق لنا شجاعته وبطولته هذه من خلال شعره ، فالشـعر هـو خير رفيق للمجاهدين في معاركهم البطولية [6] ، فكان لهذا المجاهد أثر مهم وحاسم فـي إنقاذ المسلمين الذين حاصرهم الترك في قصر الباهلي فقد ( ضاقت بالمحاصرين السـبل وقل بها المحامون ، وتأججت عواطف الاخوة واستثيرت حماية الإحساس بوحدة المصـير في أرض عربية وديار نائية فكان لصوته صوت آخر ، ولدفاعه لون يختلف ولتضحيتـه ومقاومته طبيعة متميزة وكانت أبياته إيحاء بهذا الحس وإشارة إلى صدق التعبير الوجداني

---

(١) شرح ديوان الفرزدق : ٢/٧٥٢ –٧٥٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٧٥٣ .

(٣) الشعر والفتوح الإسلامية ١١ ، د. نوري حمودي القيسي

(٤) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٨٠ .

(٥) الإسلام والشعر: ٩٧ د. سامي مكي العاني .

(٦) يُنظر: لمحات من البطولة العربية في شعر الحرب: ٢٥ .

الحي وهو ينطلق على لسان مقاتل يخوض المعركة ويبلى فيها البلاء الحسن ويؤدي واجبه بالشكل المطلوب وقد تكسر رمحه واستعاض عنه بسيفه فيكر عليهم مستمداً العزم ) [1] من الله تعالى الذي لا شريك له وقوته في قتال الأعداء ، فقال [2]:

فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ من تَمِيمٍ ... غَدَاةَ الرَّوْعِ في ضَنْكِ المَقَامِ
فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَاً اكْتَنَفُوني ... عَلَى الأَعْدَاءِ في رَهَجِ القَتَامِ
بِقَصْرِ البَاهِلِيِّ وَقَد رأوني ... أُحَامِي حِيْنَ ظَنَّ بي المحَامِي
بِسَيْفِي بَعْدَ حَطم الرمح قدماً ... أَذُودُهُم بِذِي شَطَبٍ حِسَامِ
أَكُرُّ عَلَيهِم اليحوم كَرَّاً ... كَكَرِّ الشرب آنية المُدامِ
أَكُرُّ به لَدَى الغَمرات حَتَّى ... تَجَلَّت لا يضيق بِهِ مَقَامِي
فَلَولا اللهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَضَرْبِي قَونَس الملك الهمامِ

بهذه الشجاعة واصل هذا الفارس جهاده مع جيوش التحرير فدارت معركة عنيفة لهذا الفارس مع غيره من الفرسان ضد الترك أظهر فيها هذا المجاهد شجاعته وبطولته (فلم يجد لنفسه حياة بكل مدلولات كلمة الحياة كالإقدام ودخول المعتركات التي يثبت في حومتها وجوده ) [3] فارساً شجاعاً فقال [4]:

أَمْضِي وَظِلَّ الموتِ تَحْتَ ذُؤَابَتِي ... وَيظنُّ صَحْبِي أَنَّني لا أَسْلَمُ
فَسلمتُ والسَّيفُ الحسامُ وَصَعدةٌ ... سَمراءُ يَجري بَين أَكعُبِهَا الدمُ

فخاض أشرس معركة له ضد الترك ، فدارت رحى الحرب بينه وبينهم حتى استشهد فيها ثابت وعدد من الفرسان الذين كانوا معه(رحمهم الله تعالى) [5].( إنَّ محاولة اقتحام الأرض الجديدة كانت تتطلب من القائد العربي خبرة متميزة وقدرة لها خصائصها

(١) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٠٨ .

(٢) شعره : ٥٥-٥٦ ، جمع وتحقيق ماجد احمد السامرائي .

(٣) البطل في شعر الحماسة: ٢٥٧ .

(٤) شعره: ٦٣ .

(٥) ينظر: تاريخ الطبري: ١٩٩/٨ .

حتى تكون قادرة على تسجيل الانتصار في ظروف عسكرية صعبة ، وعوامل جغرافية وتضاريس أرضية وواقع بشري له ظروفه وهي عوامل كانت لا تستجيب إلاّ للقائد المتمكن ولا تُذلل إلاّ للمؤمن المقاتل ، فعوامل الغربة لها وجوهها وأسباب الهيبة في هذه المجاهل لها تأثيراتها ، إنّ هذه الأسباب كانت سبباً مباشراً من أسباب اختيار القائد الفذ الذي توفرت فيه عوامل القيادة وتمكنت في نفسه أسباب العزيمة ، وترسخت في قدرته صورة الإيمان بالنصر وهو يندفع بعقيدة صادقة ويقاتل بثقة عالية ) [1] ، ولا ينبغي هذا القائد من جهاده إلاّ الفوز بإحدى الحسنين: ( إمّا مرتبة الشهادة التي يفوز بها بالجنة ورضوان مقيم وإمّا النصرة للعقيدة التي يكافح لأجلها وخذلان الكفر والكافرين وهو لذلك حريص على الفوز مخلص في القتال والجهاد والنضال والطعان مهما كانت منزلته فيه أو حصيلته منه ) [2] .

فالجراح بن عبد الله الحكمي قائد شجاع من قادة هذا العصر استدعاه يزيد بن عبد الملك بن مروان فعقد وضم إليه جيشاً كبيراً وأمره بالمسير إلى بلاد أرمينية ، فتمكن من دخولهافأرهب هذا النصر الخزر الذين فروا هاربين من مدينتهم فشجع هذا النصر هذا القائد على مواصلة حملته الجهادية إلى بلاد الكفر ولم ينس هذا القائد أنّ أعداءه يتربصون به ويراقبون تحركاته فعمد هذا القائد الذي خبر الحرب وعرف كيف يعالج شؤونها [3] ، إلى خدعة يوهم بها أعداءه كي يباغتهم بهجوم يكتسحهم به ويفل جمعهم ، إذ أمر هذا القائد مناديه أنْ ينادي في العسكر: أنّ الأمير مقيم ههنا ثلاثة أيام فلمّا وصل الخبر إلى أسماع أعدائه أقاموا في مواضعهم ، عندها تحرك هذا القائد بجيشه وباغت الأعداء فدنا الجيشان بعضهما من بعض والجراح يومئذ على بغلة دهماء فقام خطيباً في جنده فقال : أيها الناس انه ليس لكم من فئة تلجأون إليها بعد الله غيري وقد علمتم من قُتِلَ منكم فإلى الجنة ومن ظفر فالغنيمة والذكر الحسن [4] . إنّ هذه المعاني تملأ قلب المقاتلين وهم

---

(١) اتجاهات جديدة في شعر الحرب في ق ١هـ / ٢٨٦ .

(٢) كيف السبيل إلى الله الجهاد والاستشهاد في الإسلام: ١٦ / ٦٤ - ٦٥ .

(٣) يُنظر: شعر الحرب: ١/ ٩١- د. علي الجندي .

(٤) يُنظر: الفتوح: ٨/٢٩-٣٠ .

يخوضون يوماً مشهوداً ويكتبون شرفاً قومياً فذاً ، ويحققون مجداً دينياً كريماً [١] ، فاشتبك الفريقان وتنازل الفرسان حتى أعز الله تعالى جنده بنصر مبين[٢] .

لقد جسد هذا النصر وغيره من الانتصارات التي تحققت لجيوش التحرير حرص هؤلاء المجاهدين على القتال دفاعاً عن العقيدة كما جسد صبرهم على الجلاد وعدم سأمهم من استمرار الحروب [٣] ، مهما اختلفت موازينها وازداد فيها عدد أعداء الإسلام لذلك عزم هذا القائد على مواصلة الجهاد ضد أعداء الإسلام الذين تجمعوا بأكبر عدد استطاعوا جمعه وخرجوا يثأرون لهزيمتهم الأولى ، فأتجه للقائهم هذا القائد وهو في قلة عدد من جنوده المجاهدين ولكنهم قوة مؤمنة صابرة تعلم أنّ قتالها لا خسارة فيه فمن قُتِلَ منهم فقد فاز بالشهادة ومثواه الجنة وإنْ انتصروا قد غلبوا أعداءهم وكان النصر حليفهم فأمر الجراح مناديه أنْ ينادى المجاهدين إلى الإقدام [٤] . ( وفي هذا الموقف تتضح حقائق الحرب التي يحمل المسلمون صدق الدفاع ، وعدالة الفكرة ، وسلامة التوجه ، ويحمل المشركون أوزار الضياع وحب الدنيا ، وضعف الإيمان)[٥] ، فأراد الجراح أنْ يشد من عزم جنده المجاهدين ويرغبهم في القتال والاستشهاد في سبيل الله تعالى كما أراد أنْ يحسم موقفاً طال فيه التصبر والتلبث لان خصمه كان يتوعد ويتهدد فلما نفد صبره جاء إليه ليرده عما عزم عليه من الشر والبغي [٦] ، فتقدم نحو الأعداء وهو يرتجز شعراً بين فيه شجاعته وقوة فتكه بالأعداء بصارمه البتار فهو قائد مؤمن بالله تعالى ، فقال [٧]:

لَمْ يَبْقَ إِلاَّ حَسَبِي وَدِينِي ... وَصَارِمٌ ذو صَنْعَةٍ مَسْنُونُ

فحمل على جميع الخزر فلم يزل يقاتلهم حتى قتل منهم مقتلة عظيمة [٨] ، ولا عجب لِمَا أبداه هذا القائد ( فهو بطل يمتلك القدر الأوفى من الثقة بالنفس في ساحة القتال،

---

(١) يُنظر: شعر الحرب في عصر الرسالة: ٨٢ .

(٢) يُنظر: الفتوح: ٨/٣١ .

(٣) يُنظر: لمحات من البطولة العربية في شعر الحرب: ٣٤ .

(٤) يُنظر: الفتوح: ٨/ ٣٩ – ٤٠ .

(٥) شعر الحرب حتى ق ١هـ /١٤٣ .

(٦) يُنظر: البطل في شعر الحماسة: ٢٦١ .

(٧) الفتوح: ٨/٤١ .

(٨) يُنظر: المصدر نفسه .

ولذلك فهو يواجه العدو بوجهه ويستهجن التخاذل ) [1] ، فما زال يقاتل بهذه الشجاعة حتى شاء المولى ﷻ أنْ يُقتل هذا القائد ومن معه من الجنود المجاهدين شهداء في سبيله تعالى "رحمهم الله تعالى" [2] . فبلغ نبأ استشهادهم إلى هشام بن عبد الملك فبكى بكاء شديداً حتى علا نحيبه وبلَّ لحيته بدموعه ، وبكى المسلمون في كل بلد حزنا عليهم [3] ، وهنا يأتي دور الشعراء المسلمين في تأدية واجبهم تجاه قادة المسلمين الذين ضحوا بأنفسهم في سبيله تعالى وهم يقاتلون الأعداء على أرض بعيدة غريبة ، فالفرزدق وهو أحد هؤلاء الشعراء يؤدي دوره ويظهر ودَّه وإخلاصه تجاه هذا القائد ورفاقه المجاهدون وخاصة أنَّ الفرزدق قد عرف أيام ولاية هذا القائد للبصرة فعرفه عادلاً حسن السيرة أشاد بشجاعته وشجاعة جنده البواسل الأبطال [4] ، أشاد بحمايته لجيرته ، فهو الفارس الحامي إذا ما التقى الفرسان على الخيول ، وخلف لوائه يقاتل المجاهدون ، فطالما استجاب هذا القائد لدعوى النساء الحرائر واطلقهن من أسر الأعداء ، وكان هذا القائد إذا ما عزم على خوض حياض المنايا سعى إليه كل جارم فهو ملاذ الخائفين وحامي المسلمين ، فقال الفرزدق موثقا هذه البطولة [5] :

إلى مَن يلوِّي بَعْدَه الهامُ إذ ثَوَى ... حَيا النَّاس والقَرمُ الَّذي لِلمَراجِمِ

وَمَاتَ مَع الجرَّاحِ مَن يحشُدُ القِرَى ... وَمَن يَضْرِبُ الأَبْطَال فَوقَ الجَمَاجِمِ

فَمَا تَركَ الجرَّاحُ إذْ مَاتَ بَعْدَهُ ... مُجِيرًا عَلَىٰ الأَيَّام ذَات الجَرَائِمِ

إِذَا التقتِ الأَقْرَانُ والخَيلُ والتَقَتْ ... أسنَّتها بَين الذُكور الصَّلادِمِ

وَمَنْ بَعْدَهُ تَدْعُو النِّساءُ إذَا سَعَتْ ... وَقَد رَفَعَتْ عَنْهُ ذيُولُ المَخَادِمِ

وَكَان إلى الجرَّاحِ يَسْعَى إذَا رَأتْ ... حِياضَ المنايا عَينُهُ كُلُّ جَارِمِ

وَقَد عَلِمِ السَّاعِي إِليه ليعطِفَنْ ... له حَبْلَ مَنَّاع من الخَوفِ سَالِمِ

---

(١) البطل في شعر الحماسة: ٢٥٦ .

(٢) يُنظر: الفتوح: ٤١/٧ .

(٣) يُنظر: المصدر نفسه .

(٤) يُنظر: الفرزدق: ٤٢٧ د. شاكر الفحام .

(٥) شرح ديوان الفرزدق: ٢/ ٧٨٩ – ٧٩٠.

ويطلب الشاعر من النساء اللواتي طالما استجاب لندائهن ودافع عن ذمار محارمهن أَنْ يبكين على هذا القائد الشجاع فقال [1]:

لِتَبْكِ النِّساءُ السَّاعِيَاتُ إِذَا دَعَتْ ... لَهَا حَامِياً يَوْمَاً ذِمَـــارَ المَحَـــارِمِ

وقد تعجب الفرزدق من أرض قد أجنَّت يمين هذا القائد التي طالما هزم بها الأعداء المراجم ، فقال: [2]

فَللهِ أَرْضٌ قَدْ أَجَنَّتْ يَمِينَهُ ... وَكَانَ بِهَا يَنكَى العُدُوُّ المَرَاجِم

لقد وقفت قصيدة الرثاء موقفاً أدبياً شامخاً وهي تؤدي دورها في تصوير البطولـــة وتجميد الإنسان وتحبيب الموت وتزيين الدفاع عن الأرض والاستبسال من أَجـــل المجـد الإسلامي دفاعاً عن حرمات المسلمين وذباً عن الحمى المستباح ، وقد استطاع الشـــعراء أَنْ يتركوا في مضامين قصائدهم من معاني الخلود ما جعلها مضرب المثل ، ومن ألفـــاظ الجرأة والثبات ما أكدها في ضمير كل المسلمين ، لأَنَّ معاني التمجيد لم تكـــن مقتصـــرة على البطل الشهيد وألفاظ الخلود لم تكن وقفاً على القائد الصريح وإنَّما هي محاولة لدفـــع المسلمين إلى الاقتداء ، ومحاولة إلى تأكيد روح التضحية التي تمثلت في القائد الشهيد [3]، لذلك عزم خليفة المسلمين هشام بن عبد الملك على إكمال مسيرة الجهاد وإرســـال قـــادة الجهاد إلى أعداء الإسلام فأرسل إلى الجنيد بن عبد الرحمـــن [4] وأمَّـــره علـــى جيـــش المسلمين وأَنْ يسير بهم إلى أرض خراسان ، فسار هذا القائد ومن معه مـــن المجـــاهدين فلقي الأعداء في طريقه وانتصر عليهم [5] . فكان هذا النصر دافعاً لهذا القائد على إكمـــال المسيرة فتوجه إلى سمرقند لإنقاذ أحد قادة المسلمين الذي حاصره الأعداء فقال لـــه أحـــد الجند: لا تعجل فإنَّ مدينة سمرقند حصينة منيعة ، فقال له الجنيد والله إنَّ معي مـــن بنـــي

---

(١) شرح ديوان الفرزدق : ٢/٧٩٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢/٨٠٦ .

(٣) يُنظر: الفتوح ٨/ ٩٩ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث بن حارجة بن سنان ... ، من أهل دمشق ، كان قائداً شجاعاً قـــاد الكثير من المعارك ضد أعداء الإسلام وهزم الترك وقاد حملة على طخارستان ، فما زال هكذا حتى وافته المنية شـــهيداً في مدينة مرو التي فتحها وأدخل نور الإسلام إليها . يُنظر: تاريخ ابن عساكر: ٣/٤١٥ – ٤١٧ ، ودائـــرة المعـــارف الإسلامية: ٧/ ١٥٠ .

(٥) يُنظر: الفتوح ٨/ ٩٩ .

عمي خمسمائة رجل ، كل رجل منهم يُعد بألف من الترك ووالله لو لم يكن معي غيرهم للقيت بهم ملك الترك وجميع من معه من الكفار [1]، فهذا القائد يعتد ( بنفسه وقوته ولم يكن مبعث ذلك الاعتداد لهوى في النفس يدفع بصاحبه إلى انتفاخ للذات يدل به على الناس مخشي الجانب مرهوب الاسم ) [2] ، وإنما هو إيمان هذا القائد بالله تعالى الذي سيؤيده بنصره المبين لأنَّه إنَّما يجاهد ويقاتل الأعداء لأجل إعلاء كلمته العليا ومن ينصر الله ينصره فتقدم هذا القائد نحو الأعداء وقد ارتجز بيتاً ، فقال [3]:

أَلَيْسَ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يَشْهَدَ الوَغَىٰ وَأَنْ يَقتل الأَبطالُ ضَخْماً عَلَىٰ ضَخمِ

فقلب البطل الشجاع لا يجتمع فيه عرامة التحدي والخوف من الموت فهو غير هيَّاب مما يُفضي إليه إندفاعه وإقدامه نحو الأعداء من نتائج ، حتى وإنَّ كان الموت واحداً من هذه النتائج [4] ، فسار بمن معه من المسلمين وقد ارتجز شعراً بين فيه أنَّه لا عذر له في عدم الجهاد فقال [5]:

مَا عِلَّتِي مَا عِلَّتِي مَا عِلَّتِي إِنْ لَمْ أُقاتِلْهُمْ فَجُزُّوا لُمَّتِي

وَلَمَّا علم الأعداء بمسير هذا القائد عمدوا إلى تغوير الآبار والطرق التي يمر بها هذا القائد فلما علم الجنيد بذلك أخذ طريقا آخر يقال له طريق الشِّعب فلما توسطه هو وأصحابه فإذا بالترك قد أحد قوا بالمسلمين من كل ناحية فدنا الجيشان بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا شديداً لم يقاتلوا مثله فيما مضى قبله من الأيام فلم يزل الأمر كذلك حتى انتصر المسلمون وانهزم الكافرون [6] ، وهذا النصر ما تحقق إلاَّ بعد أنْ تمزقت أجساد طاهرة وأريقت دماء زكية فقد استشهد في هذه المعركة الكثير من الجنود المسلمين فحزن عليهم إخوانهم المسلمين ومنهم خالد بن المعارك الملقب بابن عرس فذكر شجاعة هؤلاء الشهداء الذين استشهدوا في يوم الشِّعب فقال [7] :

---

(١) يُنظر: الفتوح : ٨/ ١٠١ – ١٠٢

(٢) البطل في شعر الحماسة: ٢٦١ .

(٣) تاريخ الطبري: ٢٠٦/٨ . يُنظر: الفتوح: ١٠١/٨ ، الكامل في التاريخ : ١٦٣/٥ .

(٤) يُنظر: البطل في شعر الحماسة: ٢٦٤ .

(٥) تاريخ الطبري: ٢٠٦/٨ ، يُنظر: الفتوح: ١٠١/٨ ، الكامل في التاريخ : ١٦٣/٥ .

(٦) يُنظر: الفتوح: ١٠١/٨ – ١٠٢ .

(٧) تاريخ الطبري: ٢١٦/٨ .

وَكَمْ ثَوَى في الشِّعب من حَـازم ... جَـــلد القُوَى ذي مِرَّةٍ ماجِدِ
يَسْتَنجِدُ الخَطب وَيَغْشَى الوَغَـى ... لا هَـايبٍ غُـسٍّ وَلا نَـاكِدِ

وبعد هذا الانتصار المعطر بدماء هؤلاء الشهداء البواسل واصـل الجنيـد سـيره الجهادي نحو بلاد الأعداء البعيدة فكان النصر حليفه في كل معركة يخوض غمارها ففتـح سمرقند [1] ، ودخل مدينة مرو التي كانت المحطة الأخيرة لهذا القائد إذ مات فيها شـهيداً في سبيله تعالى [2] .

ولم تتوقف عجلة الجهاد بوفاة هذا القائد لأن المسـلمين أدركـوا أهميـة الجـهاد فبواسطته تتمتع البشرية بالعدالة في ميادينها كلها أفراداً وجماعات فلا يبقى ، وبه تتحـق كلمة الله العليا في الأرض خالصة من كل شائبة لذلك سار قادة المسلمين للفتـوح ونشـر رسالة الإسلام مهما بعدت الأصقاع وانتشروا في جميع القارات ساسة وقادة ومربين [3] ، ومن هؤلاء القائد أسد بن عبد [4] الله القسري الذي أعده الإسلام لتحطيم الطواغيت التـي تمنع دخول الإسلام إلى شعوبها وتحرمهم منه فسار معلنا الجهاد لنشـر دعـوة الإسـلام وعدالته [5] ، فكان لهذا القائد أثر حاسم في هزيمة خاقان وبالتالي ( صيانة أمن العـراق وحماية بيت الله الحرام إذ تمكن هذا القائد من الإيقاع بالترك وشتت جموعهم ، بين عظيم مصروع ، وجريح مطروح بلفظ أنفاسه الأخيرة ، وأسير صاغرٍ ينتظر العقاب ، وفـارٍ

(١) يُنظر: الفتوح: ٨/١٠٣- ١٠٥ .

(٢) يُنظر: تاريخ الطبري: ٨/٢١٨- ٢١٩ ، والفتوح: ٨/١٠٦ .

(٣) يُنظر: الجهاد في سبيل الله : ٥١ – د. رشيد نعمان التكريتي .

(٤) هو أسد بن عبد الله القسري البجلي أمير من الأجواد والشجعان ولد ونشأ في دمشق وفي أيام قيادته جاشـت الـترك بخراسان وأغاروا حتى أتوا مرو الروذ فسار إليهم أسد وكانت له معهم وقائع انتهت بهزيمتهم ، وتوفي في مدينـة مـرو فهذا القائد الشجع قد سخر نفسه مجاهداً في سبيله الله تعالى يقود جيوش المسلمين إلى قتال الكافرين فما زال كذلـك حتى مات شهيداً في إحدى المدن التي أدخل نور الإسلام إليها . يُنظر: تاريخ الطبري: ٨/٢٤٠-٢٤٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية: ٢/١٠٤ .

(٥) يُنظر: الجهاد في سبيل الله : ٥١ .

مذعـــور يخشى الموت ) [1] ، فهذا أبو الهندي التميمي يصور لنا هذه الشجاعة لهذا القائد فقال [2]:

أَبا مُنذرٍ لَولا مَســـيرُكَ لَم يَكُـــنْ ... عِرَاقٌ وَلَا انقَادَت مُلوكُ الأَعَـــاجِمِ

وَلاحَجَّ بَيتَ اللهِ مُذ حَجَّ رَاكِـبٌ ... وَلا عَمَرَ البَطحاءُ بَعْـــدَ المَوَاســـمِ

فَكَم مِنْ قَتيلٍ بَينَ سَانٍ وَجَـــزَّةٍ ... كَثيرِ الأَيَادِي مِن مُلـــوكٍ قَمَـــاقِمِ

تَرَكتَ بِأَرضِ الجُوزجانِ تَـــزورُهُ ... سِبَاعٌ وَعِقبَـــانٌ لِحـــزِّ الغَلاصِـــمِ

إنَّ قائدًا هكذا صفاته يكون له أثر في حسم المعارك لصالح المسلمين فـــهو عندمـــا يقاتل الكافرين ستكون شجاعته وخبرته العسكرية موضع استثارة المجاهدين الذين يقـاتلون خلف رايته ، فعندما يرون قائدهم أسداً يمزق الأعداء يواصلون جهادهم لأنـــهم آمنـــوا أنَّ قائدهم إنَّما يقاتل على حق فهم إذاً على النهج الصحيح فمن قُتِلَ منهم فهو شهيد ومن بقـــي وفاز بالنصر فهو مؤمن مجاهد شجاع يستحق الفخر والاعتزاز به ، فإذا ما فُقِـــدَ هـــــذا القائـــد كـــانت لـــه رنة أسى في نفوس المقاتلين ، وإحساس بالفقد في قلوب الشـــعراء ، لان بطولته مبعث استثارة وصولاته موطن توثيب ، وجلادهُ في المعارك وتضحيته فـــي الإقدام تترك في نفوس الشعراء أثراً يوحي إليهم بالمعاني النادرة ويضعهم في المواجهـــة الحقيقية لتمثيل صورة البطل ووقوفهم عند معاني البطولة ، وقد تغلب أعمالـــه الآخريـــن الذين تزدحم الساحة بأمثاله من المقاتلين وقد ينفرد أحدهم بشجاعة نادرة يُبدي من الجراءة ما يُصبح فيه موضع اعتزاز الشعراء لكن أثر القائد العسكري في إدارة المعركة وحســـم النزاع وتحديد سير القتـــال تبقى الصورة المثلى في تصور الشعراء ، والوجه الأمثل فـــي اختيار النموذج [3] ، فهذا ابن عرس العبدي يرى في شخص هذا القائـــد نموذج البطولـــة فقال [4]:

---

(١) الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي: ١٨٢ .

(٢) تاريخ الطبري: ٨/٢٤٠ .

(٣) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ :٢٠٩ .

(٤) تاريخ الطبري :٨/٢٤٨ .

أَتَـاهُ حِمَامُـهُ فِي جَـوفِ صِيـــغٍ ... وَكَمْ بِالصِيغِ مِنْ بَطلٍ شُجاعِ [1]

كَتَـائِبَ قَـدْ يُجِيبُـونَ المُنَـادِي ... عَلَى جُردٍ مُسَوَّمَةٍ سِـرَاعِ [2]

وكان سليمان بن قته مولى تميم بن مرة القرشيين صديقـا لبـذا القـائد [3]، (فرثاه رثاء حاراً تحرق فيه على هذا القائد فأشاد به ، فقد كان أسداً فـي رأيـه حامياً لحقيقتهم قائماً بأمورهم حاملاً لهمومهم ساعياً لانتزاع حقوقهم ، آخذاً بثاراتـهم ، وكـان فارسهم المشهور الذي طالما حزَّ سيفه رؤوس أعدائهم حزاً وطعنهم برمحـه طعنـاً ) [4] فقال [5] :

مَراجِـمُ أَقْـوَامٍ وَمُـرْدي عَظِيْمَـةٍ ... وَطَـلَّابُ أَوْتَـارٍ عِفرنـاً عَثَمْثَمَـا

لَقَدْ كَانَ يَعْضِي السَّيفُ في الرَّوعِ حَقه ... وَيروي السِّـنانُ الزَّاغـبي المُقَوَّمَـا

إنَّ بطولة هذا القائد عندما نظيفها إلى ما سـبقها مـن صـور البطولـة والفـداء والتضحية التي أبداها مجاهدوا هذا العصر وجسدوها خير تجسيد عندها يمكن القـول إنَّ بطولات مجاهدي هذا العصر هي كبطولات سلفهم الصالح في صدر الإسلام ، فأصبح بها سجل هذا العصر حافلاً بالكثير من نماذج البطولة الحقة ، التي أثبتت صدق المنهج الـذي سار عليه سلفهم الصالح ، وواصلوا هم السير عليه وفي سبيله قـاتلوا وقتلـوا فكـان (استشهادهم نموذجاً متقدما وتضحيتهم مفخرة نبيلة فهم رجال قدموا نفوسـهم رخيصـة ، وحملوا مناياهم إلى ديار بعيدة يؤدون واجباً إنسانياً ، ويدافعون عن قيم أصيلة ويخلصـون لعقيدة سامية ) [6] ، كما لفت نظر البحث من خلال الشواهد الخاصة بتحديد معالم بطولـة شهداء هذا العصر ان بطولتهم في ساحات الحـرب لم تنفصل عـن بطولتهم الأخلاقيـة ، بل إنها كانت ( متلاحمة تلاحماً عضوياً لا يقبل التجزئة والانفصام ، حتى إنَّ البطولة بكل

---

(١) صيغ : ناحية من نواحي خراسان يُنظر: معجم البلدان: ٥ /٢١٤ .

(٢) جرد من الخيل قصيرات الشعر: يُنظر: اللسان: ١/٥٨٨ ( جرد ) .

(٣) يُنظر: تاريخ الطبري: ٨/٢٤٩ .

(٤) الشعر العربي خراسان في العصر الأموي : ٢٢٧ .

(٥) تاريخ الطبري : ٨/٢٤٩ .

(٦) شعر الحرب حتى ٥٠ هـ ، ٢٩٢ .

ما تحمله هذه الكلمة من معـــان ودلالات لا تكـون بطولـة حقـه إلا بذلـك الاقـتران والتلاحم)[1].

**٢. الصبر:**

الصبر خلقٌ جميل ، وسلاح عظيم إذا ما تسلح به حامله ، وجعـــل منـه درعـه وعتاده، فكان الصبر وصية خلفاء المسلمين لقادة جيوشهم الذين جعلوا منه ســـلاحا لـهم ولمن تحت إمرتهم من جنود المسلمين ، وكان الصبر سلاحا ضاربا حسـم الكثـير مـن المعارك لصالح المسلمين ضد أعدائهم ، فبه نال المجاهدون الجنة يوم أن صبروا علـــى قتال المشركين حتى فاضت أرواحهم إلى جنات النعيم ، وقد تجسد كل ذلـك فـي سـيرة شهداء صدر الإسلام ، فكانوا خير قدوة يقتدي بها مجاهدوا العصر الأموي .

وهذا بشر بن مطر الازدي أحد الفتية العشرة الذين التحقوا بجيش مسلمة بن عبـد الملك بن مروان يحضُ أصحابه ويوصيهم بأن يصبروا على جهاد الأعداء ، فإنه طريقـهم إلى دار السلام ، حيث جنان النعيم ، فقال [2]:

صَبْرَاً لهـذا يـا بَني الكِـرَام  حَتَّى تَحُلُّـوا سَـاحَةَ السَّـلامِ

كذلك فإن الصبر كان سلاح قادة جيوش المسلمين وهـم يحملـون علـى أعـداء الإسلام، فالجرّاح بن عبد الله الحكمي قائد جيش المسلمين لقتال الخزر ، فعندما اشـتدت الحرب بينه وبين الأعداء وتنازل الفرسان حمل هذا القائد على الأعداء وأنشد شعرا بيـن فيه صدق إيمانه وتمسكه بدينه ، كما إنه يمتلك سيفا صارما مسنونا يفتك به الأعـداء ، إذ جعل هذا القائد من الصبر خير قرين له في ساحة المعركة ، فقال [3]:

---

(١) البطل في شعر الحماسة ٢٥٤ .

(٢) الفتوح: ٧/١٨٠ .

(٣ ) المصدر نفسه: ٨/٤١ .

لَمْ يَبْــــقَ إِلاَّ حَسْبِي وَدِينِـــــي وَصَارِمٌ ذُو صَنْعَـــــةٍ مَسْـــــنُونِ

للهِ دَرُّ الصَّبْرِ مِـــنْ قَرِيـــــــنِ قَرِينٌ صِدْقٍ غَيْـــرَ مَـاخـــــؤُونِ

فحمل هذا القائد على جميع الخزر فلم يزل يقـاتلهم حتى قتـل شهيـدا "رحمـه الله تعالى" [1] .ولم يكن هذا الصبر الذي تحلى به هذا القائد بعيدا عن سجل العـــرب ، فـهذا الفرزدق يوثق شجاعة هذا القائد وصبره وثباته حتى مشت به إلى "رحمة الله تعالى" السيوف الصوارم ، فقال الفرزدق [2]:

لَقَد صَبَرَ الجرَّاحُ حَتَّى مَشَتْ بِهِ إِلى رَحْمَةِ اللهِ السُّيوفُ الصَّوارِمُ

إن هذه الأمثلة على قلتها تجسد لنا كيف اتصف شهداء هذا العصر بـهذا الخلـق العظيم ، وجعلوا منه رفيقهم الدائم في ساحات الوغى .

(١) ينظر: المصدر نفسه.

(٢) [illegible]

**٣. الإقـــدام:**

لم يتردد مجاهدو هذا العصر لحظة واحدة عن الإقدام ومواجهة أعداء الإسلام بـــل كانوا كسلفهم الصالح رجال صدر الإسلام اسوداً تزار وتزمجر وتفتك بالكفار فتكاً ذريعـــاً وكأنما أصبحوا رموزاً لبطولات سماوية تصارع بطولات أرضية [١] ، فحربهم لأعـــداء الإسلام قد جلبت إلى نفوسهم ( خصال الشجاعة والنجدة والباس والقـــوة وهـــي صفـــات حميدة تتنافى وصفات الخور والضعف والجبن والهلع ، فكانوا يتمـــادحون بـــالموت فـــي الهيجا وميادين الحروب قعصا بأطراف الرماح أو سقوطا تحت ظـــلال الســـيوف ) [٢] ، بهذه النفوس المؤمنة الصادقة واصلت قوافل التحرير مسيرتها الجهادية وتدفقـــت معـــها موجات المجاهدين الذين وجدوا في الجهاد حقا مشروعاً وتضحية مقبولة وطريقا لتـــأكيد الإيمان الصادق [٣] .

فهذه القوافل الجهادية ( تستهين بكل النوازع التي تحاول الاستحواذ عليها رغبـــات الحياة الضائعة ، وتتقدم بكل جرأة وشجاعة لتحمل راية الإقدام بلا تردد ، وتنشر صـــوت الحقيقة بلا خوف ، لأنها لم تجد لها حياة افضل من التقدم ولم تجد لها عيشا كما يكون في الإقدام ) [٤] .

ولم يكن الشعر غائبا عن هذه الحملات الجهادية التحريرية ، فمثلما واكب قوافـــل جيوش صدر الإسلام واصل مسيرته مع جيوش هذا العصر فكان ( تعبيراً صادقـــاً علـــى أفواه الجند وهم ينتقلون من مكان إلى آخر ويطاردون الفرس مـــن مدينـــة إلـــى مدينـــة

---

(١) يُنظر : البطولة في الشعر ص ٣٧ .

[illegible]

[illegible] شعر الحرب ص ٥٠ – ٥١ .

[illegible] التراث العربي ٣٧ – ١٠

ويقتحمون القلاع والحصون ، وكان الشعر في كل صوره صوتا من أصـــوات التـــاريخ الحقيقي ، وحركة متناسقة من حركات الوجدان الأصيل الذي لم يخضع لكل هوى، ولـــم يتأثر بكل رواية ولم ينطلق إلا وفق المقاييس التي كانت تحددها المعارك ) [1].

فعندما التقى جيش المسلمين بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان مع جيش الـروم تقدم هارون بن الحصين إلى قتال الأعداء فتنازل مع علج من الأعداء إذ تمكن الأخير من طعنة ليسقط هارون شهيداً "رحمه الله" [2] .

فتقدم بعده أخوه احمد بن الحصين نحو العلج فضربه ضربة على فخـــذه فقطعـــها فمات منها هذا العلج وما أن قتله احمد حتى خرج إليه علج آخر يقال له بولص فنظر إليـه احمد وقصد نحوه دون أن يجزع من الموت بل هو حريص الحرص كله على الجنة كمـــا يحرص الأعـــداء على الحيـــاة [3]، فقال [4] :

دُونَكَ حَرْبَـــاً لَا تَقِيـــهِ ترســـي ... صَبْرَاً عَلَىٰ المَكْرُوهِ مِنِّي نَفْســـي

كَيْمَا أَنَـــالَ مَـــنْزِلاً فِي القُـــدْسِ ... فإنَّمـــا الدُّنيـــا كَيـــومِ أمـــسِ

(١) شعر الحرب حتى ق ١هـ: ٢٦١ .

(٢) يُنظر: الفتوح: ١٧٩/٧-١٨٠ .

(٣) يُنظر: شعر الفتوح الإسلامية: ٢٧٥ .

(٤) الفتوح: ١٨٠/٧ .

فاختلفا طعنتين إذ طعنه العلج في خاصرته قتيلا شهيداً "رحمه الله" ، فلما قُتل هارون بن الحصين وأخوه احمد خرج من بعدها سعيد بن إسماعيل الاسدي نحو ذلك العلج وهو ينشد شعراً أعلن فيه بيع نفسه لله تعالى بعد ان يقاتل هؤلاء الأعداء فقال [1]:

يَا بُولص الروم إليكَ نَفْسِي ... قَدْ طَالَ في ظلِّ الخَطَايا حبسِي

اليومَ أَجْمِي إخوتي بالحَمْسِ ... كَيْمَا يكون بِطَعن سَبْع رمسِي

انه مؤمن ( والمؤمن الذي عرف الله احب الله ورضي به رباً وآمراً ومعبوداً ، كما رضي بان يكون هو له عبداً ذليلاً يدرك في الذلّ له كل الذلّ عين الكرامة والعزة ، ويحس بين جنبيه بدفق السعادة وغمر الهناءة ، فلا يبالي بعد ان يقدم له وقته وجهده وماله وكل طاقاته ، بل نفسه وروحه حتى يرضى فإن الموت فيه وله حياة)[2] فالتقيا بضربتين ضربة الاسدي ضربة جدله قتيلا ثم خرج له علج آخر تبارز معه الاسدي .

فبينما هما كذلك شد العلج على الاسدي بخنجر كان معه فطعنه في نحره فقتله شهيداً سعيداً بنعمة الشهادة التي خرج وهو حريص على الفوز بها[3] .

ولم يتوقف سيل المجاهدين عن الإقدام نحو أعداء الإسلام لان بذل النفوس في الحرب ، وإرخاصها في الروع كانت في اعتقاد فرسان المسلمين حقيقة لا يمكن ان تبتعد عن حياتهم مهما كانت التضحية[4]، لذلك خرج يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري نحو

---

(١) الفتوح : ٧/١٨٠ .

(٢) كيف السبيل إلى الله الجهاد والاستشهاد في الإسلام . ١٦/ ٦

(٣) ينظر: الفتوح: ٧/ ١٨٠ .

(٤) ينظ : البطل في الشعر ا ب ٣

العلج الذي قتل الاسدي ويدعى قسطنطين الأصغر فمضى نحوه ،وقد عزم على بيع نفسه رخيصة في سبيل الله تعالى ولا يريد أن يتخلف عن اللحاق بالذين سبقوه إلى الشهادة لانه قد نال ما يكفيه من لذة العيش وصفوته، فقال [1] :

لَتَذْهَبَنَّ اليومَ نَفْسي أَسَفاً ... إذ كُنْتُ بَعْدَ خَمْسَةٍ مخلَفاً

قَدْ نِلْتُ من لَذَّةِ عَيْشي ما صَفَا ... حَسْبِي الذي عَايَنْتُ حَسْبي وَكَفَا

فحمل الأنصاري على قسطنطين العلج فقتله ، ثم وقف ودعا إلى البراز فلم يخرج إليه أحد وكيف يخرجون إليه وهم قد أدركوا شجاعته وإقدامه نحو الموت دون تردد أو خوف فقد رأوا فيه المقاتل الجريء الذي حمل النفس رخيصة في سبيل العقيدة التي آمن بها وجاهد في سبيل الله وهو مؤمن بالقدر [2] . ووجد في القرب من المولى ﷻ لذة وسعادة لا توصف [3] ، لذلك واصل جولاته على أعداء الإسلام واخذ ينشد رجزاً جهادياً يحرض به نفسه على الإقدام نحو الأعداء فقال[4]:

هَيْهَاتَ مِنِّي سَفَهي وَطَيْشِي ... أَقْصِدُ لِلحِصْنِ أَمَامَ جيشِي

قَدْ ذَهَبَ السادةُ من قُرَيشِ ... لا خَيْرَ لي مِنْ بَعْدِهِم في العَيْشِ

(١) الفتوح: ١٨٠/٧ .

(٢) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ : ٢٦٣ .

(٣) يُنظر: كيف السبيل إلى الله الجهاد والاستشهاد في الإسلام : ٦١/١٦ .

(٤) الفتوح: ١٨٢/٧ .

مما زال هذا المجاهد المقدام يواصل قتاله لأعداء الإسلام حتى رزقه الله تعالى الشهادة [1] .

هكذا يستطيب رجال الإسلام الموت في حومات الوغى دون خوف أو تردد بل كانوا يتقدمون المقاتلين بصدور تئن بانين حب الشهادة في سبيله تعالى وتتمنى ضربة سيف أو طعنة رمح حتى يتسنى لهذا الأنين أن يتوقف لان النفس قد خرجت إلى المولىﷻ في دار عليين .

**٤. الكرم :**

ان من يخرج مجاهداً في سبيل الله تعالى وهو يجود بنفسه الطاهرة راجياً الفوز بمرضاته تعالى وجناته الواسعة التي جعلها ثمناً لهذه النفوس الطاهرة لا يبخل بماله ومتاعه الزائل ، بل هي لا تعد شيئاً بالقياس إلى الجود بالنفس وهو أقصى غاية الجود.

فالمسلم كان حريصا كل الحرص على كل عمل من شانه ان يقربه إلى المولى ﷻ ومن هذه الأعمال هو الأنفاق في سبيل الله تعالى ، فالجود أو الكرم نستطيع ان نقول عنه إنه الصفة الأكثر تميزاً عند العرب دون غيرهم ، فيه عُرفوا وبهم عُرف .

وقد رأينا ونحن نتصفح سيرة شهداء صدر الإسلام الأبرار مدى الاهتمام بهذه الصفة الكريمة التي نالوا بها الذكر الحسن في الدنيا فتردد اسمهم على لسان كل مسلم وهو يشيد بعطائهم ونوالهم وبها نالوا مرضات الرب تبارك وتعالى .

وشهداء هذا العصر هم كسلفهم الصالح فقد أعطوا هذه الصفة حقها فأنفقوا ما يملكون من مال ومتاع في سبيل الله تعالى ، بل تجاوز عطاؤهم وكرمهم هذا المتاع إلى

---

(١) يُنظر: المصدر نفسه : ١٨٣/٧ .

ان يجودوا بأنفسهم الطاهرة ، فـاحتضنت الأرض البعيـدة أجسـادهم وشـربت الأرض دماءهم، وبالمقابل خلد إخوانهم المسلمون كرمهم وجودهم ، لانه حق يؤدونه تجاه هـؤلاء الشهداء .

فعبد العزيز بن زرارة بن حرب كان جواداً كريماً فحط الحريم وكـف العظيـم ، وأغنى الفقير بكرمه عن السؤال ، وأعطى الكبير وكفاه ، لكنه كان يُعد عمله هذا صغـيراً لا كثيراً حتى يكون حافـزاً له على مواصلة عطائه وكرمه هذا ما أثبته لنا أبوه زرارة ، فقال [1] :

فَحَطَّ الحريم وَكَفَّ العَظِيـمَ ... وَأَغْنَى الفَقِيرَ وَأَعْطَى الكبـيرا

وَلَمْ يرَ ما كَـانَ مِـن فِعْلِـهِ ... كَبِـيرَاً ولَكِـنْ رَآه صَغِـيرا

إن أفضل الجود ما كان مع الحاجة [2] ، قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِـهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [3] . وهذا ما اتصف به وائل أخو شاعرنا الشمردل ، فقد كان كريماً يصل الفقراء والمحتاجين وكرمه هذا لا ينقطع عنهم حتى وإن كان مقتراً محتاجـاً ، وكان لا يخيب السائلين [4] ، مهما ألحوا عليه أو اكثروا عليه الطلب فقال الشمردل موثقـاً هذا الجود له [5] :

وصول إذا استغنى وإن كان مقتراً ... من المال لم تحف الصديق مسائِلُهُ

(١) تاريخ ابن عساكر: ٥/ ٣٧٤ .

(٢) ديوان المعاني: ١/ ١٠٧ .

(٣) سورة الحشر: الآية ٩ .

(٤) يُنظر: شعراء أمويون: ق٢/ ٥٠٩ .

(٥) المصدر نفسه : ق٢/ ٥٤٠ .

وكان أجود ما يكون تجاه ضيوف الشتاء الذين آذتهم ليالي الشتاء الباردة فهم بـأمس الحاجة إلى طعام ومكان دافئ ، فيهتم بهم ويعتني بهم أشد العناية ، حتى يبدو لنـا خـيـهم أيتامه وأرامله فيقدم لهم أحسن أنواع اللحوم وأجودها فهي طرية ناعمة ناضجة وما تـزال قدوره تغلي بالنيئ من هذه اللحوم ، فكلما خبت ناره زادها وقوداً حتـى يكـون جـاهزا لإكرام ضيوفه ، فقال الشمردل [١] :

**هَضُومٌ لأَضْيافِ الشِّتَاءِ كَأَنَّمَـا  يَـرَاهُ الحَيَـا أَيتامُـهُ وَأَرَامِلُــه**
**رَخِيصٌ نَضِيجُ اللحمِ يُغلي نَيئُـه  إِذَا بَرَدَتْ عِنْدَ الصَّـلاءِ أَنَامِلُـه**

( ولم يكن بخيلاً في الحياة بماله ) [٢] ، فمنزله في مقام معروف لكـل السـائلين ، فهو رجل عُرف بكرمه وأخلاقه الفاضلة ومهما ظن به المتفرقون فإنه يسمو بهم ويهديـهم إلى داره بما وضعه من علامات في الطريق المؤدية إلى داره ، لكي يستدل بها من كـانت له حاجة عنده ، بل حتى الذي أضلَّ طريقه في وسط المفازة الواسعة فإنه يـهتدي إليـه بواسطة خيوله الكثيرة التي أعدها لوقت الحاجة فهي تقود صاحبها إلى دار سـيدها لكـي يقضي حاجته ، فقال الشمردل [٣] :

**أَخِـي لَا بَخِيـلٌ فِي الحَيَـاةِ بِمَالِـهِ  عَلَيَّ وَلا مُسْتَبطأُ النَّصـرِ خَاذِلُـه**
**أَقَـامَ حَمِيـدًا بَـيْنَ تَثْلِيـثَ [٤] دَارُهُ  وَبِيشَةَ [٥] لا يَبْعُدْ أَخِـي وَشَمَائِلُـه**
**وَشُعثٍ يظُنُّـونَ الظُّنُـونَ سَمَـا بِهِـم  لِنَائِي الصُّوى [٦] يَثْنِي الضَّعِيفَ تَمَاوُلُه**
**بِخَرْقٍ [٧] من المَوْمَاةِ [٨] قُـودٍ [٩] رِعَانُـهُ  يَكَادُ إِذَا أَضْحَـى تَجُـولُ مَوَائِلُـه**

---

(١) شعراء أمويون : ق٢/ ٥٤٠ – ٥٤١ .

(٢) المصدر نفسه :ق٢/٥٠٩ .

(٣) المصدر نفسه :ق٢/ ٥٤٣ .

(٤) تثليث : موضع بالحجاز قرب مكة . يُنظر معجم البلدان: ٢/ ٤٣٢ .

(٥) بيشة : قرية غنّاء في واد كثير الأهل ببلاد اليمن . يُنظر: المصدر نفسه: /٤١٥ .

(٦) الصوى : أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي والمفازة المجهولة يستدل بها على الطرق .

يُنظر: اللسان: ٤/ ٢٥٣١ ( صوى ) .

(٧) الخرق: الأرض البعيدة [illegible] الفلاة الواسعة [illegible] الانخراق [illegible] منها يُنظر:المصدر نفسه:٢/١١٤٣(خرق).

(٨) الموماة : المفازة الوا[illegible] ٤٣٠١/ ( موم ) .

(٩) [illegible] يستدل [illegible] إليها. يُنظر المصدر نفسه:٥/٣٧٧٠.

ومثل كرم وائل كان قدامه وأحكم فهم فتية جود ومكرمة ، يسعون لدفع الضر وإطعام الجائع ، فهذا الشمردل ينقل لنا هذا الكرم فيقول [1] :

لَا يَبْعَدَاً فتيَا جُـودٍ وَمَكْرُمَـةٍ  لِدَفْعِ ضَيْمٍ وَقَتْلِ الجُوعِ وَالقَـرمِ[2]

إنَّ المرثي عندما يستجيب لدعوة الكرم وخاصة إذا أصاب الناس قحط شديد فإنَّ الناس بأمس الحاجة إلى كرمه ، فوصل الفقراء والمحتاجين واستجاب لمطالب السائلين ، ومن يكون هذا حاله مع الكرم فإنَّه سيترك باستشهاده أثراً كبيراً في هؤلاء جميعاً ، فعندما استشهد اخوة الشمردل الثلاثة أصاب ضيوفهم الفقر ، ولفتقدوا إلى كرمهم وإحسانهم ، بل إنَّ نارهم التي كانوا يوقدونها ليلاً لكي يهتدي بها السائلين قد أخمدها كل فتى وغل ، هذا ما تصوره الشمردل فقال [3] :

فَلَا يبعـدَاً لِلدَّاعيـين إليـهما  إذا أغبر آفاقُ السَماءِ مِـن المَحْـلِ
فَقَد عَدِمَ الأَضْيَافُ بَعْدَهُما القِرَى  وَأَخمدَ نَارَ الليلِ كُلُّ فَتَىً وَغْـلِ [4]

كذلك كان محمد بن الأخطل جواداً إلى درجة الإيثار فقميصه الممزق يوحي لمن يراه بأنه لا يملك قوت نفسه لكنه في حقيقة الأمر سيد كريم اشغلته حاجات الناس عن نفسه فهو يرعى أيتام الشتاء الذين آذاهم البرد القارص فخرجوا يبحثون عن مأوى يلتمسون فيه الدفء والطعام ، فكان لهم ذلك عند محمد الذي شمَّر عن ساعده وأَعدَّ قدره الشديدة الغليان بما أوقد تحتها من نار عالية تكون هادية للسائلين إلى داره عندما يشتد عليهم الظلام وتضيق بهم السبل وسط الجبال العالية ، لكن ناراً عالية كالتي أوقدها محمد كافية لهدايتهم ، فتوافد إليه اليتامى على آثار أرامل سود [5] ، إنَّ هذه اللوحة الرائعة لكرم هذا الفتى قد وثقها الفرزدق فقال [6] :

تَرَى مزقَ السِّربَالِ فَوْقَ سَمَيْدَعٍ  يَدَاهُ لأَيْتَـامِ الشِّـتاءِ طَعَامُـهَا

---

(١) شعراء أمويون: ق٢/ ٥٥٢ .

(٢) القرم : شدة الشهوة إلى اللحم . يُنظر اللسان : ٥/٣٦٠٤ ( قرم )

(٣) شعراء أمويون ق٢/ ٥٤٨ .

(٤) الوغل : الوغل من الرجال هو الذل الضعيف الساقط والمقصر في الأشياء . يُنظر: اللسان: ٦/ ٤٨٧٩ (وغل)

(٥) يُنظر: الفرزدق: ٤٢٣ .

(٦) شرح ديوان الفرزدق: ٢/٧٥٢ .

وَكَانَتْ يَدَاهُ المرزمَين وَقِـــدْرُهُ ... وَللبيتِ والأَبْطَالِ فِيـــهَا سمامُـــهَا
تَفَرَّقُ عَنْهَا النَّارُ والنَّابُ تَرْتَمِـــي ... بِأَعْصَابِهَا أَرْجَاؤُهَـــا واهتِزَامُـــهَا
جماعٌ يُؤَدِّي اللَّيلُ مِن كُلِّ جَانِبٍ ... إِلَيهَا إِذَا وَارَى الجِبَـــالَ ظَلامُـــهَا
يَنَامُ عَلَى آثَارِ سُـــودٍ كَأَنَّـــهَا ... رِئَالٌ دَعَاهَا للمبيـــتِ نَعَامُـــهَا

وَأَخبرنا الفرزدق أيضا بمكان هذا الفتى الكريم ، فهو يسكن الأماكن المرتفعة حتـــى يكون في قبلة أنظار الضيوف ، على عكس البخيل الذي ( ينزل في بطون الأودية ويبعـــد عن الطريق مخافة الضيف )[1] ، فقال [2] :

لِمَنْ أَخْطَأَتْهُ أَرِيحاءُ لَقَدْ رَمَتْ ... فَتًى كَانَ حَلاَّلَ الرَّوابِي سِهَامُهَا

كما لجأ الفرزدق إلى توكيد كرمه ، فبين لنا الأسلوب الذي يتبعه ابن أخيه لدعـــوة الضيوف الطارقين ليلاً وهو إيقاد النار ، فقال [3] :

فَتًى كَشِهَابِ اللَّيلِ يَرْفَعُ نَـــارَهُ ... إِذَا النَّارُ أَخْبَاهَا لِسَارٍ ضِرَامُهَا

وتتسع صورة كرمه في أشد وأصعب الظروف ، فالأرض قد أصابها الجفـــاف لأنَّ ما في السماء من سحاب لا مطر فيه والنوق قد خف لبنها وارتفع ضرعـــها ، فأصـــاب الناس الجدب والقحط وهم في أصعب الفصول في فصل الشتاء فهم فيه دون غـــيره مـــن الفصول بأمس الحاجة إلى مَنْ يجود عليهم ، فاستجاب لدعواهم محمد وقضى حوائجـــهم من كل ما رغبوا فيه ، فكرم هذا الفتى دائم في كل الأوقات في الرخاء والشـــدة ، فقـــال الفرزدق موثقاً ذلك كله [4] :

فَتًى لَم يَكُن يُدْعَـــى لَيْـــسَ مِثْلَـــهُ ... إِذَا الرِّيحُ سَاقَ الشَّوْلَ شَلاًّ جَهَامُهَا
تَكَرُّمَـــهُ عَمَّـــا يُعَـــيِّرُ وَالقِـــرَى ... إِذَا السَّنَةُ الحَمْرَاءُ جَلْـــحَ عَامُـــهَا
وَكَانَ حَيًّا للمُمحلِـــينَ وَعِصْمَـــةً ... إِذَا السَّنَةُ الشَّهباءُ حَـــلَّ حَرَامُـــهَا

(١) الأشباه والنظائر: ٢/٢٩ .
(٢) شرح ديوان الفرزدق: ٢/٧٥٢ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه : ٢/٧٥٢ – ٧٥٣ .

إِذَا مَا بِتَاءُ المَحْلِ أَمْسَى قَدِ ارْتَدَى ... بِمِثْلِ سَحِيقِ الأُرجُوانِ قَتَامُهَا
أَقُولُ إِذَا قَالُوا وَكُمْ مِنْ قَبِيلَةٍ ... حَوَ اليكَ لَمْ يُتْرَكْ عَلَيْهَا سِنَامُهَا
أَبِي ذِكْرُ سَوْرَاتٍ إِذَا حُلَّتِ الحُبَى ... وَعِنْدَ القِرَى والأَرْضُ بَالٍ ثُمَامُهَا

ولا عجب أَنْ يرسم صورة الكرم هذه لابن أخيه محمد لانه يرى فيه بقية أبيه غالب[1]، فقال [2] :

وَكُنَّا نَرَى مِنْ غَالبٍ فِي مُحَمَّدٍ ... خَلَايِقَ يَعْلُو الفَاعِلِينَ جِسَامُهَا

وعندما يكون الشهيد قائداً فإنَّ صورة كرمه تتسع إلى أبعاد أوسع عما كانت عليه عند عامة الناس ، فعندما مات الجنيد بن عبد الرحمن نجد أبا الجوبرية عيسى بن عصمة العبدي يبين لنا سعة كرم هذا القائد لجميع الناس إلى درجة أَنَّ الشاعر قد جعل الجود بشخص هذا القائد ، فلما مات مات الجود فقال [3] :

هَلَكَ الجُودُ والجُنَيْدُ جَمِيعَاً ... فَعَلَى الجُودِ والجُنَيْدِ السَّلَامُ
أَصْبَحَا ثَاوِيَيْنِ فِي أَرْضِ مَرْوٍ ... مَا تَغَنَّتْ عَلَى الغُصُونِ الحَمَامُ
كُنْتُمَا نُزْهَةَ الكِرَامِ فَلَمَّا ... متَّ مَاتَ النَّدَى وَمَاتَ الكِرَامُ

لقد أصبح الشعر وثيقة صادقة رافقت مسيرة الشهداء الأبرار ، فخلد فيها الشعراء كل سجية عرف واتصف بها هؤلاء الشهداء وكأن الكرم سجية من سجايا كثيرة خلدها الشعراء في وثيقتهم .

---

(١) يُنظر: الفرزدق: ٤٢٣ .

(٢) شرح ديوان الفرزدق: ٧٥٣/٢ .

(٣) تاريخ الطبري: ٢١٩/٨ .

## المبحث الثالث

## المعاني المستخلصة من شعر الشهادة والشهيد

### ١. مظاهر الحزن وآثاره في مراثي الشهداء :

وجد البحث في شعر الشهادة والشهيد الخاص بشعراء هذا العصر مادة شعرية تستحق هذه التسمية ، وهذه المادة سوف تبين نوع علاقة الراثي بالمرثي هل هي علاقة قرابة أم علاقة صداقة أخوية ؟، كذلك ما آل إليه حال الراثي بعد فقده المرثي [١] . ولا يدخل ضمن هذه المادة أسلوب نداء العين بالبكاء لانه سوف يدرس في الموضع المخصص له من الفصل الثالث، الخاص بالدراسة الفنية .

إنَّ هذه التسمية وهذا الانفراد بهذا المبحث لا يعني أنَّ هذه المادة الشعرية قد تميز بها شعراء هذا العصر عن عصر صدر الإسلام ، بل إنَّ شعراء صدر الإسلام كان لهم حزنهم ومظاهره المختلفة تأثراً منهم لفقدهم شهداءهم الأبرار ، لكن الأبيات التي عبروا من خلالها هذا الحزن قد أخذت عدداً محدوداً من شعرهم الذي نظموه في رثاء شهداء المسلمين ، أما بالنسبة لشعراء هذا العصر فإنَّ حزنهم بمظاهره المختلفة قد أخذ عدداً أكثر مما هو عليه عند العصر الأول وعليه فإنَّ هذه التسمية وهذا الأفراد هو جديد من حيث الكم ، لا من حيث أصل التسمية .

إنَّ هذا الحزن وما يتركه من آثار في مراثي شهداء هذا العصر لا يختلف عن مثيله عند شعراء صدر الإسلام ، فهو حزن إسلامي فيه الصبر على المصيبة واحتساب الفقيد شهيدا عند الله تعالى ، كما سيؤكد هذا الحزن بمعانيه المتعددة كل ما اتصف به الشهيد من صفات عُرِفَ بها في حياته ، وكذلك فإنَّه سوف يبين لنا أهمية المكانة التي نالها هؤلاء الشهداء في نفوس الناس فضلا عَن أنَّ هذا الحزن هو عاطفة إنسانية لا يخلو منها شعور أي إنسان ، بل إنَّ هذه العاطفة هي التي جعلت من شعر الرثاء أشرف الأشعار هذا ما أكده إعرابي عندما سئل(ما بال الرثاء أجود أشعاركم؟ قال:لأنَّا نقول وأكبادنا تحترق)[٢] .

---

(١) ينظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: ١٤٢ .

(٢) البيان والتبين: ٢/٣٢٠ ، للجاحظ . وينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: ٥/١٦٥ .

( إن الشعور بالفراغ الكبير الذي يتركه الفقيد بين أهله وذويه وأصحابه سيخلف في نفس الشاعر – وهو أكثرهم إحساسا – مكاناً لا يسد ، وجرحاً لا يندمل ، وتظل هذه الصورة موحية في نفسه ، دافعة لاستمراريته الشعرية ، حتى تستكمل القصيدة شكلها)[1].

فهذا الشعور وهذا الإحساس كان موحياً ودافعاً لزرارة بن حرب كي ينظم شعراً ويستكمله في رثاء ابنه عبد العزيز الذي استشهد في قتال الروم مخلداً في شعره هذا شجاعته وكرمه وعفته وكل صفة عرف بها ، كما بين لنا زرارة ومن خلال شعره الأثر الذي تركه نبأ استشهاد ابنه فيه ، إذ أصبح كما يقول شيخاً مصاباً ضريراً [2]:

نَعَاهُ ابن حَرْبٍ إِلى الغَدَاةِ  فَأَصْبَحْتُ شَيْخَاً مُصَابَاً ضَرِيْرَا

ان هذا النمط من الشعر يمثل الذروة العاطفية في هذا الشعر ، لما اشتمل عليه من صور وما صاحب التجربة من أحاسيس ، ( ولا غرابة في ذلك اذا علمنا ان الشاعر حاول التعبير بكل ما يملك ، ليوصل هذه الحقيقة الى المستمع الذي اهتم به الشاعر كل الاهتمام ، فهو الرجل الذي يتألم بهذه المأساة ، وهو الصديق الذي يشاطر الشاعر هذه الاحزان ، وهو ابن القبيلة التي يفخر بها الشاعر حتى في هذا الموقف الذي يجود فيه بنفسه)[3] .

( ويمكن ان يسمى هذا النوع من الرثاء بالرثاء الواقعي الذي يصور بصدق ومرارة نظرة الناس الى الموت ومسيرة الحياة بعد الاموات ، ولهذا نقول انه أكثر مراثي النفس حرارة وابعدهم عن الشك وأقربهم الى الحياة الانسانية )[4].

ومثلما كان الشاعر صادق الإحساس والمشاعر تجاه نفسه ، فقد كان صادقاً في مشاعره تجاه الآخرين الذين يرثيهم بشعره ، فعندما استشهد القائد الشجاع سعيد بن عثمان بن عفان ﷺ تأثر باستشهاده الناس وحزنوا عليه ، فهذا خالد بن عقبة نراه يحزن حزناً

(١) دراسات في الشعر الجاهلي: ١٤٦ .

(٢) تاريخ ابن عساكر: ٣٧٤/٥ .

(٣) دراسات في الشعر الجاهلي : ١٥٩ .

(٤) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام : ١٥٧ .

صادقاً صابراً متحسباً ، مُشيداً بسجايا هذا القائد فهو خير الناس نفسا ووالداً ، وكيف لا يكون كذلك وهو ابن خليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويخالط هذا الحزن حكمة وموعظة هي أنّ لا خلود لحي ، وما أصاب سعيد فهو مصير كل إنسان ، فقال[1] :

أَلاَ إِنَّ خَيرَ النَّاسِ نَفْساً وَوَالِداً ... سَعِيدُ بن عثمانَ قَتِيلُ الأَعَاجِمِ

فَإِن تَكُنِ الأَيامُ أَرْدَتْ صُرُوفُهَا ... سَعِيدَاً فَهَل حَيٌّ مِنَ النَّاسِ سَالِمُ

أما أبو صخر الهذلي [2] فنجده في قصيدته التي رثى بها ابنه داود [3] الذي استشهد في قتاله الروم ، يمهد إلى حالة الحزن في هذه القصيدة ، إذ ( يفتتحه بذكر الذين رزئ بهم من أخ وعم وابن أخ سمح ، وصاحب وابن عم . كلهم تتابعوا . وَإِنَّ المصير الذي ينتظر الجميع هو الموت ، وإنهم كانوا جميعاً بحوراً إذ اشتد الشتاء ، وفتيان هيجاء ، وحاول الشاعر أنْ يوحي بجو الحزن ويعيد إلى الصورة دفقات الشجن ، ورنّات الفاجعة من خلال الصور التي يقدمها ويختارها . فنائبات الدهر لا يرجعن هالكاً إلى أهله ، ونوائب الدهر كثيرة لا تترك مغتراً لفقره ، ولا تصانع أهل الرغائب ، ولا تهاب قوم الشجاع ولو زحفوا من دونه بالكتائب ، وإنّ الفتى رهن المنايا ) [4] ، فقال[5] :

وَكَمْ مِنْ أَخٍ أَوْ عَمٍّ صِدْقٍ رُزِئْتُهُ ... أَوِ ابْنِ أَخٍ سَمْحٍ كَرِيمِ الضَّرَائِبِ

وَمِنْ صَاحِبٍ لِي وَابْنِ عَمٍّ تَتَابَعُوا ... وَمَنْ ذَا من الأَحْيَاءِ لَيْسَ بِذَاهِبِ

بُحُورٍ إِذَا اشْتَدَّ الشِّتَاءُ مَلاوِثٍ ... وَفِتْيَانِ هَيْجَا كَالجِمَالِ المَصَاعِبِ

مَتَى يَلْتَمِسْ مَوْلاَهُمُ الحِلْمَ عِنْدَهُمْ ... يَجِدْ فَضْلَ حِلْمٍ عِنْدَهُمْ غَيْرَ عَازِبِ

---

(١) تاريخ ابن عساكر: ٦/١٥٨ .

(٢) هو عبد الله بن سلم السهمي ، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية . ينظر: الأغاني: ٢٤/٩٨ .

(٣) استشهد داود هذا في قتال الروم ، والذي دلنا على استشهاده البيت التاسع والخمسون من هذه القصيدة فقال:

سألت مليكي اذ بلاني بفقده ... وفاةٌ بأيدي الروم بين المقانب

وقد سبق الباحث إلى هذه الإشارة الدكتور نوري حمودي القيسي . ينظر: شعراء أمويون: ق٤/٢٢٠ . عالم الكتب ، بيروت .

(٤) المصدر نفسه : ق٤/١٩ .

(٥) شرح أشعار الهذليين: ٢/ ٩١٧ – ٩١٨ .

أَنَابُوا فَأَعْرَوْا حَيْثُ كَانُوا وَعَطَّلُوا ... مَعَ البِيضِ كَالغِزْلانِ مَثْنَى النَّجائِبِ
فَلا نَائِبَاتُ الدَّهرِ يَرْجِعْنَ هَالِكَاً ... إِلَى أَهْلِهِ والدَّهْرُ جَمُّ النَّوائِبِ
ولا فُقْرَاً يَوْمَاً تَرَكْنَ لِفَقْرِهِ ... فَيُخْفَىٰ وَلا صَانَعْنَ أَهْلَ الرَّغَائِبِ
وَلا بَاسِلاً ذَا ثَرْوَةٍ هِبْنَ قَوْمَهُ ... وَلَوْ زَحَفُوا مِن دُونِهِ بالكَتَائِبِ
فَيَغْدُوا الفَتَى والمَوْتُ تَحْتَ رِدَائِهِ ... وَلا بُدَّ مِنْ قَدَرٍ مِنَ اللهِ وَاجِبِ
يَقُولُ غَداً أَلْقَى الَّذِي اليَوْمَ فَاتَنِي ... وَيَأْمُلُ أَنْ يَلْقَىٰ سُرُورَ العَجَائِبِ
وَيَنْسَى الَّذِي يَمْضِي وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ ... يُسَدَّى لَهُ نَسْجُ المَنَايَا الطَّوَالِبِ
فَلا تَغْتَبِطْ يَوْمَاً بِدُنْيَا وَإِنْ صَفَتْ ... وَلا تَأْمَنَنَّ الدَّهْرَ صَرْفَ العَوَاقِبِ

ففي هذه ( المعاني تتجلى تقريرية الإيمان بالموت ، وتتضح وجاهة الأسباب التي يبرر بها عناصر الحدث الذي أحكم قبضته عليه ، وضيق أبواب الإفلات من دائرته ... وتمسك أبيات الحكمة بتلابيب المعاني التي يريد أَنْ يحشدها ليبقى مشدوداً إلى جو الحزن الذي أوحت به هذه التقريرية وانسابت إليه الأفكار التابينية التي تَعَوَّد الإنسان عليها عندما تشتد به حالة اليأس وتكبر في نظره مساحة المأساة ليصل إلى طيف داود الذي هاجه بعدما دنت تاليات الكواكب ) [1] ، فقال[2] :

وَقَدْ هَاجَنِي طَيْفٌ لِدَاوُدَ بَعْدَمَا ... دَنَتْ فَاسْتَقَلَّتْ تَالِيَاتُ الكَوَاكِبِ

( وهنا تتفجر في نفسه عاطفة الأبوة وتستثار أحاسيس الغربة والفرقة وذهول الفجيعة ، وترتسم له صور الصدى الذي يحلم بلقائه ليخفف عنه . وهنا تتجلى فلسفة الحياة والموت ، ويقف الشاعر عند الحقائق التي يعجز عن إدراكها البشر وهي تتمثل في غياب الأنسان التي لا ينسى ، وهل هناك عودة لآيب ، وصحبة مع من لا يقدر على فراقه، وإذا أيقن الإنسان بِأَنَّ الموت حقيقة لا بد منها ، وأَنَّه يفرِّق بين الأعزاء ويباعد بين

(١) شعراء أمويون: ق٤/٩ .
(٢) شرح أشعار الهذليين: ٩١٨/٢ .

الأحبة ، ويترك الحياة نهباً لطوارئ وأحداث تتحكم فيها بمصير الناس بما قدر الله عليهم)[1] ، فقال[2] :

فَقُلْتُ أَغَمَّتْ مُقْلَتَيَّ عَمَايَةٌ ... لَبِثْتُ وَقَد فَارَقْتَنِي غَيْرَ عَاتِبِ
وَمَا فِي ذُهُولِ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ سَلْوَةٍ ... رَوَاحَ من السُّقْمِ الَّذِي هُوَ غَالِبِي
وَعِنْدَكَ لَوْ يَحْيَى صَدَاكَ فَنَلْتَقِي ... شِفَاءٌ لِمَا غَادَرْتَ يَوْمَ التَّنَاضِبِ
فَهَل لَكَ طِبٌّ نَافِعِي مِنْ عَلَاقَةٍ ... تُهِيمُنِي بَيْنَ الحَشَا والتَّرَائِبِ
تَشَكَّيْتُهَا إِذْ صَدَّعَ الدَّهْرُ شَعْبَنَا ... فَأَمْسَتْ قَد أَعْيَتْ فِي الرُّقَى والطَّبَائِبِ
وَلَولَا يَقِينٌ أَنَّمَا المَوْتُ عَزْمَةٌ ... مِنَ اللهِ حَتَّى يُبْعَثُوا لِلمَحَاسِبِ
لَقُلْتَ لَهُ فِيمَا أُلِمَّ بِرَمْسِهِ ... هَلْ أَنْتَ غَداً غَادٍ مَعِي فَمُصَاحِبِي
فَمَاذَا تَرَىٰ فِي غَائِبٍ لَا يُغِبُّنِي ... فَلَسْتُ بِنَاسِيهِ وَلَيْسَ بِآئِبِ

إِنَّ عاطفة الشاعر تجاه من يرثي هي عاطفة متأججة منبعها الود الصادق في أغلب الاحيان ، الإخاء المحض والمصاحبة الدائمة ، لان فقدان الشخص الذي تتمثل فيه هذه الصفات يعد خسارة بالنسبة للشاعر ، لانه بفقده يفقد هذا الود والإخاء والمصاحبة وقد يكون وقع هذا الفقد كبيراً تتراوح درجته قوة وعاطفة حسب مركز المرثي وأهميته بالنسبة للشاعر ، وقد يلازم الحزن البعض منهم مدة طويلة حتى يضرب المثل فيهم بطول الحزن وامتداد التأثر واستدامة البكاء ، ولهذا يمكن عد هذه العاطفة من الوسائل التي يعبر فيها الإنسان عن المضامين الحقيقية للنفس عندما تحس بالمصاب يقع ، والحياة المستديمة تتبدد أحلامها[3] ، والشعراء هم الأقدر على رسم هذه الصورة ، لأنهم يختزنون لوازمها ، ويمتلكون القدرة على إظهار هذه اللوازم [4] ، (ويأتي الشمردل اليربوعي الذي قتل اخوته الثلاثة حكم ووائل وقدامه ضمن قائمة هؤلاء الشعراء، لأنه بكاهم بأرق الشعر ... وتمثل لوحاته الشعرية الخالدة ألواحا أخرى يمكن

(١) شعراء أمويون: ق٤/٢١ .

(٢) شرح أشعار الهذليين : ٢/٩١٨ – ٩١٩ .

(٣) يُنظر شعراء أمويون: ق٢/٥٠٩ .

(٤) يُنظر : المصدر نفسه .

إضافتها إلى ألواح الرثاء الخالدة في الأدب العربي ، لِمَا أبداه من عواطف وأوضحه من صور التفرق والتشتيت فهي مراث تصدر عن قلوب قرحة ، ولهذا جادت معانيها وحسنت ألفاظها ) [1] ، فهذا الشاعر قد شهد الكثير من نزعات الحزن بفراق الأحبة فلم يكن لها وقع كبير في نفسه ، لكنها إذا كانت في فراق أخ كريم العطاء فإنَّ موقعها سيكون وسط الصدر عندها سوف تظلم بعينه شمس الضحى حتى تنسيه أهله ، فحاله حال أب قد فارق ابناه ، ، فشدة الحزن كثيراً ما تجعل الشاعر يبث في شعره عبراً وعظات ، فهادم اللذات ومفرق الجماعات يأبى إلاَّ أنْ يفرق بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، فقد فرق الموت بينه وبين أخويه قدامه ووائل اللذين أحبهما كثيراً ، فقد استنزفا دموعه قليلاً قليلاً ، فأخذ هذا الحزن طريقه إلى عقله ، عندها نجده يصرح ومن شدة الحزن ، كأنه لم يسرِ مع أخويه يوماً وهم بأحسن حال مجتمعين فرحين ، فقال[2] :

أعاذِلُ كَمْ مِن رَوْعَةٍ قَدْ شَهِدْتُهَا ... وَغُصَّةِ حُزْنٍ في فِرَاقِ أَخٍ جَزْلِ

إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَ الحيازيمِ أَسْدَفَتْ ... عَلَيَّ الضُّحَى حَتَّى تُنَسِّيَنِي أَهلِي

وَمَا أَنَا إِلاَّ مِثْلُ مَن ضُرِبَتْ لَه ... أُسى الدَّهرِ عن ابني أَبٍ فَارِقاً مِثْلِي

أَبَىْ الموتُ إِلاَّ فجعَ كُلَّ بَني أَبٍ ... سَيُمسون شَتَّى غَيرَ مُجتمعي الشَّملِ

سَبِيلَ حَبِيبَيَّ اللَّذَيْنِ تَبَرَّضَا ... دُمُوعِي حَتَّى أَسْرَعَ الحزنُ في عَقْلِي

كَأن لم نسرْ يَوماً وَنَحْنُ بِغَبْطَةٍ ... جَمِيعاً ويزل عِنْدَ رَحْلَيهِمَا رَحْلِي

ويبدو لنا ومن خلال قصيدته التي رثى بها أخاه وائل ، انه كان له منزلة عزيزة في نفسه ، فهو يشكو إلى الله وحده لا غيره فقده ، لأنَّه ﷻ هو الذي أعطى وأخذ ، ويشكو لوعة حزن أوجعت قلبه ، وقد أدى عظم المصاب إلى تصور الأحداث وتجسيم الرؤى[3]، فقد رأى الشمردل في منامه كأنَّ سنان رمحه قد سقط ، فعبره على بعض من يعبر

(١) شعراء أمويون : ق٢/ ٥١٠ .

(٢) المصدر نفسه: ق٢ /٥٤٧ .

(٣) يُنظر: المصدر نفسه : ق٢/٥١٠

الرؤيا ، فأتاه نعي أخيه وائل [1] ، فقال [2]:

أَقُولُ وَقَد رَجَّمتُ عَنه فأسرعت ... إِليَّ بأخبارِ اليَقِينِ مَحَاصِلُه

إِلىَ اللهِ أَشْكُو لَا إِلى النَاسِ فَقْدَهُ ... وَلَوْعة حُزنٍ أَوْجَعَ القَلْبَ دَاخِلُه

وَتحقيقَ رُؤيَا فِي مَنَامِي رأيتُهَا ... فَكَان أَخِي رُمْحِي تَرفَّضَ عَامِلُه

فحاول الشاعر تعزية نفسه بالصبر لكنه يأبى المطاوعة ، والعين يخالط جفنيها القذى ، فقد استنزفت بعد جهدها في البكاء عليه بقيت دمع شجوها إكراما له [3] فقال[4]:

أَبَى الصَّبرُ أَنَّ العَينَ بَعْدَكَ لم يَزَلْ ... يُخَالِط جَفْنَيها قَذىً مَا تُزَايِلُه

تَبَرَّضَ بَعْدَ الجهد مِن عَبَرَاتِهَا ... بَقِية دَمْعٍ شَجْوُهَا لَكَ بَاذِلُه

وقد كان شاعرنا قبل استشهاد أخيه يجود بدمعه على من مات من الناس ، أما اليوم فقد شُغِلَ بالبكاء عليه ، الذي يتذكره دائما كل ما هب هيف الجنوب ، ومنتهى نسيم الصبا، تذكره برمسه بعد أَنْ وُضِعَت عليه الأحجار كذلك تُذَكِّرُه هاتفةٌ فوق الغصون تنوح على فقد حمامة قد أبعدتها حبائل الغصون عنها [5] ، فقال[6] :

وَكُنْتُ أُعيرُ الدَّمعَ قَبْلَكَ مَنْ بَكَى ... فَأَنْتَ عَلَى مَنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاغِلُه

تُذَكِّرُنِي هَيْفُ الجَنُوبِ وَمُنْتَهَى ... نَسِيم الصَّبَا رَمْسًا عَلَيهِ جَنَادِلُه

وَهَاتِفَةٍ فَوْقَ الغُصُونِ تَفَجَّعَتْ ... لِفَقْدِ حَمَامٍ أَفْرَدَتْهَا حَبَائِلُه

من الورق بِالأَضْيَافِ نَواحة الضُّحَى ... إِذَا الغَرْقَدُ التَفَّتْ عَلَيهِ غَيَاطِلُه

ومما يُذَكِّرُهُ أيضاً بأخيه وائل ، رؤيته للناس وهم يستعدون لحرب الأعداء ، ولكن لا فتيان لهذه الحرب سوى مَنْ قَد علاهم الشيب ، عندها تذكر فتوة أخيه وحاجة الحرب إليه،

---

(١) يُنظر الأغاني: ١٣/٣٨٢ .

(٢) شعراء أمويون: ق٢/٥٤١ .

(٣) يُنظر : المصدر نفسه: ق٢/ ٥١٠

(٤) المصدر نفسه: ق٢/ ٥٤٢ .

(٥) يُنظر : المصدر نفسه : ق٢/ ٥١٠ .

(٦) المصدر نفسه: ق٢/ ٥٤٢

وكذلك فإنّه يتذكره عندما يرى الجاهل يدعو الحليم إلى فتنة وضلالة ولا رادع له ، فقال[1] :

وَسَورة أَيدِي القوم إِذْ حُلْت الحبا حب الشَّيب واسْتَغْوَى أَخَا الحِلْمِ جَاهِلُه

والشاعر يحاول أَنْ ( يمهد للموضوع بأشكال وأضواء وألوان وأصوات تحمل دلالات الحزن وتوضح جانب الصمت ، وتوحي بألوان اليأس ... ) [2]، فالسموم تلفح بوهجها في صحراء جرداء ملساء لا شئ فيها يستر الناظر ، والسراب يلف الصخور الصماء المرتفعة من جميع الجهات [3] ، فقال [4] :

تُشبهُ حَسرَاهُ القَرَاقِرَ يَرْتَمِي بِهَا ذوْ جِدَابٍ يَضربُ البيد سَاحلُه

إِذَا النَشْزُ فَوْقَ الآل ظَلَّ كَأنهُ قَرَا فَرَسٍ يَغْشَىْ الأجلَّة كَاهِلُه

إِنَّ بُعد أخيه عنه قد أثر فيه إلى درجة ان الشاعر يقول كأنني لم أُبايت وائلاً ولم أُقايله ، لأنّه قد أصبح في الهجر (القبر) الذي حال بينه وبين أخيه ، فقال [5] :

فَلا البُعدُ إِلاَّ أَنَّنا بعد صُحبة كأن لم نُبَايِت وَائِلاً وَنُقَايِلُه

وَأَصْبَحَ بَيت الهجر قَدْ حَالَ دُونه وَغَالَ امرء مَا كَانَ تُخْشَىْ غَوَائِلُه

وقبل أَنْ يأتيه نبأ استشهاد أخيه الحكم ، أيقن أَنَّه سوف يستشيد ويفقده ويفترق عنه ، بل إِنَّ الموت مفرق شمل جميع الآباء والأبناء ، فأخوه (عزيز وغال ، له مكانته الكبيرة ، ومقامه العالي ، ومركزه المرموق . وفقده يشكل فراغاً كبيراً لا يمكن أَنْ يُعوض ، وهو عند الجميع تستجيب لفقده الدموع حتى تُفنىْ ، ليس له مثيل في الأحياء عند البعض فهو كالسنان بالنسبة للرمح ،

(١) شعراء أمويون : ق٢/٥٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ق٢/٥١١ .

(٣) يُنظر : المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه: ق٢/ ٥٤٤ .

(٥) المصدر نفسه: ق٢/ ٥٤٥ .

والبنان للكف ) [1] ، وإذا ما فقد الرمح سنانه ، والكف بنانه ، فَإنَّ النقص فيها بين كبير ، فقال موضحاً ذلك [2] :

وَقَبْلَ فِراقِهِ أيقَنْتُ أني ... وَكُلِّ ابني أَبٍ مُتَفارِقانِ
أَخٌ لي لَو دَعوتُ أَجابَ صوتي ... وَكُنْتُ مُجيبَهُ أَنَّ دَعاني
فَقَد أَفْنَى البُكاءُ عَلَيهِ دَمْعي ... وَلَو أَنَّ الفَقيدُ إِذاً بَكاني
مَضَى لسبيلهِ لَم يُعْطِ ضَيْماً ... وَلَمْ تَرْهَب غَوائلَه الأَدانِي
وَكُنْتَ سِنانَ رُمْحي مِن قَنَاتي ... وَلَيْسَ الرمحُ إِلاَّ بالسِّنانِ
وَكُنْتَ بَنانَ كَفّي مِن يَميني ... وَكَيْفَ صَلاحُهَا بَعْدَ البَنانِ

كما بث من خلال حزنه موعظة وحكمة بليغة ، فهو يؤكد على عدم بقاء الأشياء ، وان هذه الدار التي يعيش فيها الإنسان ، لابد ان يلحق بها الفناء [3] ، فقال [4]:

وَما بِناءٌ وَإِنْ سُدَّتْ دَعائِمُهُ ... إِلاَّ سَيُصبحُ يَوماً خاوِيَ الدِّعَمِ

وهذا الفرزدق يحزن على ابن أخيه محمد حزناً عميقا ، إذ بات ليلته الطويلة الظلماء بديري أُرِيحاء ، وهو يكابد فيها فراق هذا الفتى القريب إلى نفسه ، فدونه بقية ذكرى أخيه ، فقال[5] :

فَبِتُّ بِدَيْرَى أُرَيحاءَ بِلَيلَةٍ ... خُدارِيَةَ يَزْدادُ طُولاً تَمامُهَا
أُكابِدُ فيها نَفْسَ أَقْرَبَ مَنْ مَشَى ... أَبُوهُ لِنَفْسٍ مَاتَ عَنِّي نِيامُهَا

فنراه يحاول أَنْ يتعزى ، ويهون وجده وحزنه ، فالموت حتم في رقاب العباد ، لكن أحزانه تغلبه ، ويغالبه الأسى فلا يقوى على مغالبته وحده ، ويطول نحيبه وهو يقف أمام

(١) شعراء أمويون : ق٢/٥١١ .

(٢) المصدر نفسه: ق٢/ ٥٥٣-٥٥٤ .

(٣) الأدب الأموي صور رائعة من البيان العربي: ٧٣ د. ابراهيم علي أبو الخشب .

(٤) شعراء أمويون: ق٢/٥٥٢ .

(٥) شرح ديوان الفرزدق. ق٢/٧٥٢ .

القبر الذي ضمه وجعله بعيداً عنه إلى الأبد [1] ، فقال [2] :

فَهَوِّنْ وَجْدِي أَنَّ كُـلَّ أَبٍ امْـرِئٍ ... سَيُثْكَلُ أو يَلقَـاهُ مِنْـهَا لِزَامُـهَا

وَقَدْ تَرَكَ الأَيَّـامُ لِي بَعْـدَ صَـاحِبِي ... إِذَا أَظْلَمَتْ عَيْناً طَوِيلاً سِـجَامُهَا

كَأَنَّ دُلُوحـاً تَرْتَقَـي فِي صُعُودِهَـا ... يُصَيِّبُ مَسِيلَى مُقْلَـتِي سِـلامُهَا

عَلَى حُرِّ خَدَّي مِـنْ يَـدَى ثَقَفِيَّـةٍ ... تَنَاثَرَ من إِنْسانِ عَيْـنِي نِظَامُـهَا

لَعَمْرِي لَقَدْ عَـوَّرْتَ فَـوْقَ مُحَمَّـدٍ ... قَلِيباً بِـهِ عَنَّـا طَوِيـلاً مُقَامُـهَا

شَـامِيَّةً غَـبْرَاءَ لا غُـولَ غَيْرُهَـا ... إِلَيها مِنَ الدُّنيَا الغُرُورِ انصرامُـهَا

فأصبح محمد في قعر هوة عميقة تحيط به جوانبها ، وانهال عليه ترابـها الـذي لا يتمالك أَنْ يسيل من اليد لِلينه ، فقد حل محمد داراً بعيدة لا يرجى الاجتماع به فيها مـرة أخرى [3]، فقال [4] :

فَلِلَّهِ مَا اسْتَوْدَعْتُمُ قَعْـرَ هُـوَّةٍ ... وَمِـنْ دُونِـهِ أَرْجَاؤُهَـا وَهُيَامُـهَا

بِغُورِيَّةِ الشَّـأْمِ الَّتِي قَـدْ تَحُلُّهَا ... تَنُـوخُ وَلَخْـمٌ أَهْلُـهَا وَجُذَامُـهَا

وَقَدْ حَلَّ دَارًا عن بَنِيـهِ مُحَمَّـدٌ ... بَطِيئـاً لِمَـنْ يَرْجُـو اللِّقَـاءَ لِمَامُـهَا

وَمَا مِنْ فِرَاقٍ غَيْرَ حَيْثُ رَكَابُنَـا ... عَلَى القَـبْرِ مَحْبُـوسٌ عَلَيْنَـا قِيَامُـهَا

تُنَادِيهِ تَرْجُو أَنْ يُجِيبَ وَقَدْ أَتَـى ... مِنَ الأَرْضِ أَنْضَادٌ عَلَيهِ سِـلامُهَا [5]

وكان الحزن سبباً في فلسفة بعض الشعراء تجاه الموت ، فعندما استشهد علقة بـن عقيل [6] فوصل نبؤه إلى أبيه الذي أَحَسَّ بثقل هذا الخبر عليه ، لان ابنه كـان فارسـاً

---

(١) يُنظر : الفرزدق: ٤٢٤ .

(٢) شرح ديوان الفرزدق: ٢/٧٥٣ – ٧٥٤ .

(٣) يُنظر : الفرزدق: ٤٢٤ .

(٤) شرح ديوان الفرزدق: ٢/٧٥٤ .

(٥) الأنضاد : تراصف الحجارة بعضها فوق بعض . يُنظر : اللسان : ٦/٤٤٥٣ (نضد) .

(٦) هو عُلقة بن عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية بن صعاب بن حابر بن يربوع بن غيض بن مرة ... ، ويكنى أبا العملـس، وبعد عقيل شاعر مجيد مقل من شعراء الدولة الأموية ، والذي أرشدنا إلى استشهاد ابنه هذا هو قوله الآتي من نفس الشعر الثبت أعلاه :

وقالوا ألا تبكـي لمصـرع فـارس ... نعتّه جنـود الشـام غـير ضئيـل

فأقسمت لا ابكي على هلـك هـالك ... أصـاب سـبيل الله خـير سـبيل

ينظر : الأغاني : ١٢/٢٦٩-٣١٣ .

شجاعاً له منزلة كبيرة بين قومه ، وهذا الخبر كان سبب فلسفته : فيقول: كأنّ المنايا تبتغي خيارنا ، أو لها نسباً عندنا أو أنّها أخذت الفتى عُلّقة بدليل هداها إليه ، فلتحل المنايا حيث شاءت ، ولتأخذ من تشاء فإنّها محللة بعد الفتى ابن عقيل ، فقال [1]:

كَأَنَّ المَنَايَا تَبْتَغِي فِي خِيَارِنَا ... لَهَا نَسَبًا أَو تَهْتَدِي بِدَلِيلِ

تَحُلُّ المَنَايَا حَيْثُ شَاءَت فَإِنَّمَا ... مُحللة بَعْدَ الفَتَى ابن عَقِيلِ

إنّ لنبأ استشهاد الأحبة والأصدقاء أثر ووقع شديد في نفوس من لهم صلة بهم ، فعندما استشهد القائد سورة بن الحر ورفاقه المجاهدين في سمرقند تأثر لاستشهادهم مجاهد كان قد رَافقهم في الجهاد ، فقد طال عليه ليله إذا ما حاول النوم ، ولكن هذا الليل على النيام قصير ، وإذا ما جرب الإغفاء أَرّقت نوم عينه حادث استشهاد ذلك القائد ورفاقه ، فقال [2]:

تَطَاوَلَ مَا أَنَامُ عَلَيَّ لَيْلِي ... وَلَكِن لَا يَطُولُ عَلَى النِيَامِ

إِذَا أَغْفَيتُ أَرّقَت نَومَ عَيني ... حَوادِثُ قَدْ أَنَخْنَ عَلَى التَمَامِ

إنّ هذا الحزن بمظاهره المتعددة ، وآثاره المختلفة في نفوس الشعراء وغيرهم ممن كانت له صلة بهؤلاء الشهداء ، قد أثبت جليا مكانة هؤلاء الشهداء العظيمة بين أهليهم ، وذويهم ، والوسط الذي كانوا قد عاشوا فيه ، فشكل فراقهم فراغاً كبيراً ، كما أثبت هذا الحزن كل سجية عرف أو اتصف بها هؤلاء الشهداء في حياتهم ، لذلك تأثر وحزن كل من كانت له صلة بهم ، لأنهم أدركوا مدى الخسارة الكبيرة التي حلت بهم برحيل هؤلاء الأبرار عنهم .

### ٢. الدعاء بالسُّقيا لثوى الشهداء.

**السُّقي لغة:** معروف والاسم منه السُّقيا بالضم ، فنقول: سقاه الله الغيث واسقاه ، ويقال في الدعاء: سقيا له ورعيا [3] ، أي سقاك الله ورعاك أي حفظك وهو مما يدعى به

---

(١) الأغاني : ١٢/٣١٣ .

(٢) الفتوح : ٨/١٠٤ .

(٣) ينظر: مختار الصحاح: ٣٠٥ ( سقى ) ، واللسان: ٣/٢٠٤٢ .

للإنسان [1] ، أو نقول: سقّاه ورعّاه ، ويُقال: أيضاً سقيت فلانا واسقيته إذا قلت له: سقاك الله [2]، قال ذو الرمة [3]:

وَقَفَتْ عَلَى رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقتي ... فَما زِلتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخاطِبُهْ

وَأُسقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبُثُّهُ ... تُكَلِّمُني أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُهْ

أما اصطلاحا فهو – الدعاء بالسقيا – دعاء إنساني يحمل معاني الخير والبركة والغيث لقبر المرثي [4]، ( والسقيا كما نعلم تعني المطر الغزير الذي يروي الأرض اليابسة فيحيي الزرع ويخضر الكلأ فيديم الحياة على وجه الأرض وهو يشبه الدعاء بسقيا أرض الحبيبة لأنه يعني بالحالين الخير والبركة الشاملة للأرض التي يحل فيها الفقيد أو الحبيب ) [5] ، وهذا الدعاء أشبه ما يكون بطقس ديني ذا صلة بمعتقدات تقدس صورة الماء ، وترىٰ في نزول المطر صورة الرضى على قبر الميت[6]، ( فالدعاء به للأموات يشير بصورة غير مباشرة إلى تنمي الخير والبركة بصورة دائمة على أرض العرب ولكل من عليها وتحتها من الأحياء والأموات )[7] .

وهذا الدعاء ليس موضوعاً جديداً انفرد به شعراء هذا العصر ، بل هو موضوع قديم اتبعه شعراء ما قبل الإسلام ، فهذا أبان بن همام بن نضلة الأسدي نجده يستخدم هذا الدعاء في رثائه لهمام ، فقال [8] :

خَلِيلَيَّ عُوجا إِنَّما حاجةٌ لَنا ... عَلَى قَبْرِ هَمّامٍ سَقَتْهُ الرَّواعِدُ

وهذه الخنساء تبكي أخاها صخراً الكريم وتدعو له بالسقيا ، فقالت[9]:

سَقياً لِقَبرِكَ مِن قَبرٍ وَلا بَرِحَت ... جودُ الرَّواعِدِ تَسقِيهِ وَتَختَلِبُ

---

(١) ينظر: المخصص : ٣/ السفر الثاني عشر ١٨٩ – ١٩١ لابن سيده .

(٢) ينظر: مختار الصحاح : ٣٠٥ ، واللسان: ٣/٢٠٤٢ .

(٣) ديوانه: ٣٨ . تحقيق كارليل هنري هيس .

(٤) ينظر: الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: ١٩٦ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) ينظر: شعراء أمويون : ق٤/٢١ .

(٧) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: ١٩٦ .

(٨) الحماسة البصرية : ١/٢٥٢ .

(٩) ديوانها: ١٣ ، تحقيق كرم البستاني .

وعرفه أيضا شعراء صدر الإسلام عندما دعـوا به لشهداء المسلمين الأبرار ، فمر بنا هذا الدعاء في شعر كثير بن الغريزة النهشلي في رثائه لشـهداء معـارك الطالقـان وجوزجان [1] ، ودعا به أيضا القعقاع بن عمرو التميمي في رثائه لخـالد بـن يعمـر التميمي[2] ، وهذا الدعاء كما نرى لا تتجاوز نسبة وجوده فـي أشـعار شـعراء هذيـن العصرين البيتين أو الثلاثة ، أما في هذه العصر وتحديداً عند أبي صخر الهذلي فَإنَّ هـذا الدعاء قد اتسعت مساحته واتسعت معانيه في اثنين وعشرين بيتاً ، فنحن نرى الفرق بيـن هذه الإطالة التي انفرد بها هذا الشاعر والإيجاز الذي اعتاد عليه ما قبله من الشعراء .

والدعاء بالسقيا من الوسائل التي تخفف عن الإنسان هول المصيبة ، وتبعـده عـن الهواجس القاتلة ويزيح عنه بعض الهموم الكثيرة ، وتبعد عنه أشباح الغربـة القاتلـة[3] ، لذلك أطال شاعرنا في هذا الدعاء حتى يكون متنفسا عن آلامه وأحزانه ، كما إنَّ هـذا الدعاء يُدْخِل إحساس الراحة إلى النفس عندما تدعو الله تعالى أَنْ يسقي قبر الميت[4] .

وهذا الدعاء قد يأتي في مقدمة القصيدة ، ويأتي أيضاً في ختامها ، والختام بالسـقيا هو الأفضل ( لأَنَّهُ مناسب لحدة الانفعالات الإنسانية فالحزين يتمنى قرب فقيده أو انه لـم يمت ... الخ ولكن بعد أَنْ يمضه الواقع ويشعر بأَنَّ ما حصل شئ حتمـي وأكيـد يعـود ليدعو له بالخير والبركة والسقيا في عالمه الثاني ) [5] فمما جاء في النـوع الأول وهـو الدعاء بالسقيا في مقدمة القصيدة ، ما وجد في رثاء الفرزدق لابن أخيه محمد فيدعـو الله تعالى أَنْ يسقي أريحا الغيث التي حل بها قبر محمد ، فحبه ليس للأرض بل هي بعيضـة إليه ، وإنما حبه لقبر محمد الذي حل فيها ، وما زال في دعائه وهـو يرسـل السـحاب المملوء بالمطر الكثير إلى مثوى محمد ، فكلما أقلعت سحابة جاءت أخرى مكانها تـنزل غيثها على الأرض التي حل بها قبر محمد ، فقال[6] :

سَقَى أَرِيحاءَ الغَيْثُ وَهي بَغِيْضَـــةٌ إِلَيَّ وَلَكِـن بي لِيُسْـقَاه هَامُـهَا

(١) يُنظر: هذا البحث : ١٣٩

(٢) يُنظر : المصدر نفسه .

(٣) يُنظر : شعراء أمويون: ق١/٢١ .

(٤) يُنظر : المصدر نفسه .

(٥) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ١٩٢ .

(٦) شرح ديوان الفرزدق: ٢/ ٧٥-٧٥٢

مِنَ العِينِ مُنْحَلُّ العَزِالِي تَسُوقُهُ جَنُوبٌ بِأَنْضَادٍ يَسُحُّ رُكَامُهَا

إِذَا أَقْلَعَتْ عَنْهَا سَمَاءٌ مُلِحَّةٌ تَبَعَّجَ مِنْ أُخْرَى عَلَيْكَ غَمَامُهَا

فهو يدعو الله تعالى ان يسقي ( الأراضي والمساحات الشاسعة المجدبة المحيطة بقبر المرثي ثم يؤكد ان دعاءه ليس حبا في الأرض ومن عليها وإنما لمن ثوى تحتها من الأحبة ) [1] .

ومن هذا الدعاء أيضا دعاء سليمان بن قتة مولى بني تميم بن مرة عندما رثى صديقه القائد أسد بن عبد الله الذي وافاه الأجل في خراسان ، فيدعو المولى له ﷺ ان يسقي أرض بلخ سهلها وحزنها أي ما ارتفع من أرضها ، ومروى خراسان السحاب الكثير المتجمع ، وهذا كله لان قبر أسد قد حل في تلك الأرض فقال [2]:

سَقَى اللهُ بَلْخًا سَهْلَ بَلْخٍ وَحَزْنَهَا وَمَروى خُراسان السحاب المجمَّمَا [3]

ولم يبخل الشمردل اليربوعي على أخيه وائل ، فدعا الله تعالى ان يسقي الأرض التي أحاطت قبره بالمطر المديم والوابل الشديد ، فقد ثوى غريبا في أرض بعيدة ، فقال[4]:

(١) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام : ١٩٨ .

(٢) تاريخ الطبري: ٢٤٩/٨ .

(٣) المجمما : الكثير ، ينظر اللسان: ٦٨٦/١ . (جمم).

(٤) شعراء أمويون: ق٥٤١/٢

سَقَى جَدَثاً أَكْنَافَ غَمرة دُونَـهُ ... بِهضبة كُتمـان المُـديم ووابلُـه [1]

بِمَثْوَى غَرِيب لَيْسَ مِنَّـا مَـزَارُه ... قَرِيباً وَلاَ ذُو الـوُدِ مِنَّـا يُوَاصِلُـه

أَمَّا النوع الثاني وهو ختام القصيدة بالسقيا فنبدأ به عند أبي صخر الهذلي لأنّه كما ذكرنا قد أحسن توظيف هذا الدعاء ، فاتسعت مساحته وتعددت معانيه بشكل جعله ينفرد ويتميز عن غيره من الشعراء الذين استخدموا هذا الدعاء . فيبدأ شاعرنا كما بدا غيره من الشعراء ، داعياً المولى ﷻ أَنْ يسقي قبر ابنه داود ( بالماء المسح من كل جانب ، لترتوي الأرض وليظل القبر نديّاً رطباً تزهو فوق حفافيه خضرة الجنة ، وترتوي من مياهه النفوس العطشى ) [2] ، فقال [3] :

فَأَسْقَى صَدَى دَاوُودَ دَانٍ غَمَامُـهُ ... هَزِيمٌ يَسُحُّ الماءَ مِنْ كُـلِّ جَـانبِ

وبعد أنْ بين الشاعر غايته من هذا الدعاء ، أرسل السحاب المملوء بالمطر إلى قبر أبنه ، وقد حملت رياح الصبا هذا السحاب ، فاتحدت هذه الرياح بأخرى جنوبية ويمانية ، فهذه الرياح الثلاث قد سرت وهي تحمل مزنة حضرمية مملوءة بالمطر ، فأخذت هذه الرياح تُنْزِلُ من هذه المزنة مطراً خفيفاً لكي تَسقي به مطافيل الإبل وتمسح ضرعها كي يزداد لبناً وتجود به على صاحبها ، فقال[4]:

سَرَى وَغَدَتْ فِي البَحْرِ تَضْرِبُ قُبْلَـهُ ... نُعَامَى الصَّبَا هَيْجَـاً لِرَيَّـا الجَنَـائِبِ [5]

ثَلاثَـاً فَأَسْـرَتْ مُزْنَـةٌ حَضْرَمِيَّـةٌ ... لَهَا ثَائِبٌ طَـلٌّ النَّـدَى بَعْـدَ ثَـائِبِ [6]

تَحُـوزُ مَنَـاتِيحَ الغَمَـامِ وَتَمْـتَرِي ... مَطَافِيلَ لَم يُنْـدَبْ بِهَـا صَـرُّ حَـالِبِ

وتستمر هذه الرياح في حملها هذه المزنة وارسالها إلى مثوى داود ، فتلحق هذه الرياح بهذه المزنة سحابة مملوءة بالماء والمطر ، لكي يغمر هذا المطر الأرض ويملا

---

(١) الديمة: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق وهو دائم ، أما الوابل فهو المطر الشديد . يُنظر: اللسان: ٢/١٤٦٧ (ديم) . و٦/٤٧٥٥ (وبل).

(٢) شعراء أمويون : ق٤/٢١ .

(٣) شرح أشعار الهذليين: ق٢/٩١٩ .

(٤) المصدر نفسه.

(٥) نعامى : من أسماء ريح الجنوب لأنها تُثيرُ الرياح وأرطبها ، يُنظر : اللسان : ٦/٤٤٨٢ ( نعم ) .

(٦) ثائب : أي عض رطب كأنه ماء البحر إذا فاض بعد الحور ، يُنظر: المصدر نفسه: ١/٥١٨ (ثوب) .

الجزيرة ، ويواصل هذا السحاب سيره ببطء وهو يمطر حتى يصل إلى العراق[1] ، فيطيل المطر على واد في هذه الأرض وقد أحاطت به الجبال ، فكان هذا المطر سبباً في إكساء هذا الوادي وهذه الجبال خضرة جميلة ، لكثرة ما نبت فيها من نبت العرفج الذي عرف بانتشاره السريع ، وريحه الطيبة ، وخلوه من الأشواك[2] ، فقال [3] :

فَأَلْحَقْنَ مَحْبُوكًا كَأَنَّ نَشَاصَهُ مَنَاكِبُ مِن عَرْوَانِ بِيضُ الأَهَاضِبِ [4]

سَنَا لَوْحِهِ لَمَّا اسْتَقَلَّت عُرُوضُهُ وَأَحْيَا بِبَرقٍ فِي تَهَامَةَ وَاصِبِ[5]

فَجَرَّ عَلَى سِيفِ العِرَاقِ فَفَرْشِهِ فَأَعْلَامِ ذِي قُوسٍ بِأَدْهَمَ سَاكِبِ [6]

ويتابع هذا الماء وهو سحاب يتخاله البرق ويعلو الأرض ذات الحجارة السوداء ، ويجلّل المناطق والمواضع والأصوات التي يمر عليها ، وتأخذ بكل طرف من أطرافه ، وتتوالى أسماء الأماكن التي يصيبها ، والرياح الشامية واليمانية والصبا والسيل الذي يميل عن الصخور التي اتخذتها أولاد الثعالب ملجأ لها [7] ، وهذا السيل قد علا كل شئ حتى الأرض المرتفعة التي يظن البعض أنها في مأمن من السيل ، فيمر هذا السيل على كل شئ فيغشي الأرض ذات الحجارة السوداء ، وهذا السيل في سيره ، له صوت قوي يخيف حتى الوحوش ، وكأنه صوت ابل كثيرة [8] فقال[9] :

فَلَمَّا عَلا سُودَ البِصَاقِ كِفَافُهُ تُجِيبُ الذُّرَى مِنْهُ بِدُهْمٍ مَقَارِبِ [10]

---

(١) يُنظر: شعراء أمويون: ق٤/٢١ .

(٢) يُنظر: اللسان: ٤/٢٩٠٢ ( عرفج ) .

(٣) شرح أشعار الهذليين : ٢/٩١٩-٩٢٠

(٤) انحوك : الممتلئ ، والنشاص : السحاب ، والهضبة : المطرة الدائمة العظيمة القطر .

يُنظر : اللسان: ٢/٧٥٨ ( حبك ) و٦/٤٤٢٧١ (نشص) و٦/٤٦٧٠ ( هضب )، وعروان:حبل . يُنظر: معجم البلدان ٦/٣١٩ .

(٥) واصب : دائم . ينظر: اللسان: ٦/٤٨٤٨ (وصب) .

(٦) السيف : ساحل البحر : يُنظر : المصدر نفسه: ٣/٢١٧٢ (سيف).

(٧) يُنظر: شعراء أمويون: ق٤/٢١ .

(٨) يُنظر : شرح أشعار الهذليين : ٢/٢٩٠-٢٩١ .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) كفافه : كُفَفُ السحاب وكِفافهُ : نواحيه، وكُفّة السحاب : ناحيته ، ينظر: اللسان: ٥/٣٩٠٤ (كفف)

فَجَلَّلَ ذَا عَـــيْرٍ وَوَالَى رِهَامَـــهُ ... وَعَنْ مَخْمِصِ الحُجَّاجِ لَيْسَ بِنَاكِبِ [1]

فَلَمَّا عَلَتْ شِعْرَيْنِ مِنْهُ قَـــوَادِمٌ ... وَوَازَنَ مِـــنْ أَعْلَامِـــهَا بِالمَنَـــاكِبِ [2]

مُضِرٍّ شَـــآمِيهِ لِيَنْبُـــعَ فَـــالحِمَى ... وَدُونَ يَمَانِيـــهِ جِبَـــالُ المَرَاكِـــبِ

لَهُ ذَمِـــرَاتٌ فِي ثُمَيْـــسٍ تَخَفُّـــهُ ... وَقُدَّامَـــهُ تَغْشَـــى ثَنَايَـــا المَنَـــاقِبِ [3]

يُمِيـــلُ قَفَـــاراً لَمْ يَكُ السَّيْلُ قَبْلَهُ ... أَضَرَّ بِهَـــا فِيهَـــا جِبَـــابُ الثَّعَـــالِبِ

فَأَصْبَحَ مَأْمُونُ المَنَـــاجِي مَحَـــافِلاً ... لأَعْرَاقِ طَمَّاحِ القَوَانِـــسِ لاَحِـــبِ [4]

فَلَمَّا تَغَشَّى نَقْرَيَـــاتٍ سَـــحِيلُهُ ... وَدَافَعَـــهُ مَـــنْ شَـــامَهُ بِـــالرَّوَاجِبِ [5]

أَلَحَّ رَجِيفاً يُهْرِبُ الوَحْشُ حِسُّـــهُ ... كَلَجَّـــةِ حَـــوْمِ المَنْـــهَلِ المُتَجَـــاوِبِ

عندها رفع الشاعر له صوته وأيقن انه أصوات نوء من النجم ، وان السحاب الـذي أرسله غير كاذب ، فقال[6] :

رَفَعْتُ لَهُ صَوْتِي وَأَيْقَنْتُ أَنَّـــهُ ... أَزَامِلُ نَجْمٍ خَالُهُ غَـــيْرُ كَـــاذِبِ [7]

فدعا الشاعر المولى ﷻ أَنْ يمطر السحاب على الأرض التي حل بها قـــبر داود ، فيتلبد رمله ويختلط بما جلبته الريح من تراب وحصى لكي يروي صـــدى داود ، وهـو يدرك أَنَّ صداه الذي قد علاه الصخر الذي وضع على قبره ليس بشارب ، ولكنه يشـــعر بالراحة عندما ( يرى هذا السيل الكبير وقد غمر الأرض وسد كل الوديـان التـي بقيـت

---

(١) عير: جبل في الحجاز . ينظر: معجم البلدان : ٣٦٥/٦ ، والرهم : المطر الضعيف الدائم الصغير القطر ، والمكب : ميل في الشيء . ينظر: اللسان: ١٧٥٦/٣ ( رهم ) و٤٥٣٤/٦ ( نكب ) .

(٢) شعران : جبلان من جبال تهامة . يُنظر : معجم البلدان: ١٤٥/٥ .

(٣) ذمرات: أصوات ، ينظر: اللسان: ١٥١٥/٣ ( ذمر ) ، ووجد البحث في معجـم البلـدان: ٤٠٣/٨ نحيسة: بلـدة بطبرستان.

(٤) المناجي: ما ارتفع من الأرض فلم يعمه السيل ، والقوانس: الأعالي . ينظر: اللســـان: ٤٣٥٩/٦ ( نحـا ) و٣٧٥١/٥ (قـس) .

(٥) السحيل: الصب ، والرواجب : الأبدي ينظر: المصدر نفسه: ١٩٥٩/٣ (سحل ) و١٥٨٤/٣ ( رجب ) .

(٦) شرح أشعار الهذليين: ٩٢٢/٢ .

(٧) أزامل: أصوات ، اخال : السحاب ينظر: اللسان. ١٨٦٣/٣ ( زمل ) و١٣٠٨/٢ ( خيل ) .

تشكو الجدب لتقر العين وتسعد النفس وهي ترى مكان داود وقد تدافعت السيول حوله وهي صافية رزق ، وارتفعت أصول الشجر وتهدي روايا سيبه وسجاله ( لداود ) وهي مواهب من مواهب الرحمن) [١] ، فقال[٢]:

وَقُلْتُ عَسَى أَنْ يَلْبُدَ اليَوْمَ وَدْقُهُ ... سَفَاةً بِمُسْتَنِّ الرِّيَاحِ الحَوَاصِبِ[٣]

لِيَرْوِيَ صَدَى دَاوُودَ وَاللَّحْدُ دُونَهُ ... وَلَيْسَ صَدَى تَحْتَ العِدَاءِ بِشَارِبِ[٤]

وَلَكِنْ يُقِرُّ العَيْنَ وَالنَّفْسَ أَنْ تَرَى ... بِقُعْدَتِهِ فَضَلاتِ زُرْقٍ دَوَاعِبِ[٥]

وَتَهْدِي رَوَايَا سَيْبِهِ وَسِجَالِهِ ... لِدَاوُودَ وَالرَّحْمَنُ جَمٌّ المَوَاهِبِ

لقد كان هذا الدعاء رائعاً وهو يمتد إلى هذه المسافة ، واستغرق في هذا البعد معاني كثيرة ، وقد شمل هذه الباحة الكبيرة التي دخل في دائرتها أقطار شاسعة ومناطق متباعدة[٦] .

ومن الشعراء الذين ختموا قصائدهم بدعاء السقيا الشمردل اليربوعي ، إذ نجده يختم مرثيته لأخيه وائل داعيا المولى عز وجل أَنْ يسقي الأرض السهلة التي حل بها قبر أخيه، ويبين أَنَّ دعاءه هذا ليس حبا للأرض ، وإنما للذي حل فيها ، فقال[٧] :

سَقَى الصَّفَرَاتِ الغَيْثُ مَا كَانَ ثَاوِياً ... بِهِنَّ وَجَادَتْ أَهْلَ شَوْلٍ مَحَايِلُهْ

وَمَا بِي حُبُّ الأَرْضِ إِلاَّ جِوَارُهَا ... صَدَاهُ وَقَوْلُ ظَنَّ أَنِّي قَائِلُهْ

ومنه أيضا دعاء ابن عرس العبدي لأسد بن عبد الله القسري ، إذ يدعو له أَنْ يسقي قبره الغيث ، لأَنَّ أسداً في نظره طالما كان غيثهم الخصيب ، فقال[٨] :

سُقِيتَ الغَيْثَ إِنَّكَ كُنْتَ غَيْثاً ... مُرِيعاً عِنْدَ مُرْتَادِ النَّجَاعِ[٩]

---

(١) شعراء أمويون: ق٢٢/٤ .

(٢) شرح أشعار الهذليين : ٩٢٢/٢-٩٢٣ .

(٣) الحاصب : هي الريح الشديدة التي تحمل التراب والحصباء . يُنظر لسان: ٨٩٣/٢ ( حصب ).

(٤) العداء الصخر الذي يوضع على القبر . يُنظر : المصدر نفسه: ٢٨٤٩/٤ ( عدا )

(٥) الزرق : الماء الصافي . يُنظر:اللسان: ١٨٢٧/٣ ( زرق ) .

(٦) يُنظر : شعراء أمويون: ق٢٢/٤ .

(٧) المصدر نفسه: ق٥٤٥/٢ .

(٨) تاريخ الطبري: ٢٤٨/٨ .

(٩) المريع : الخصيب . يُنظر اللسان: ٤١٨٣/٦ ( مرع ) .